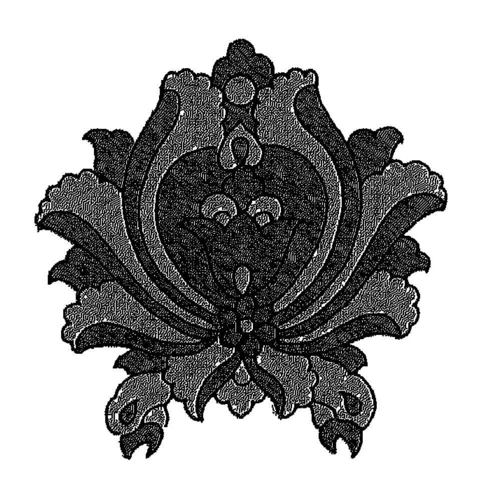
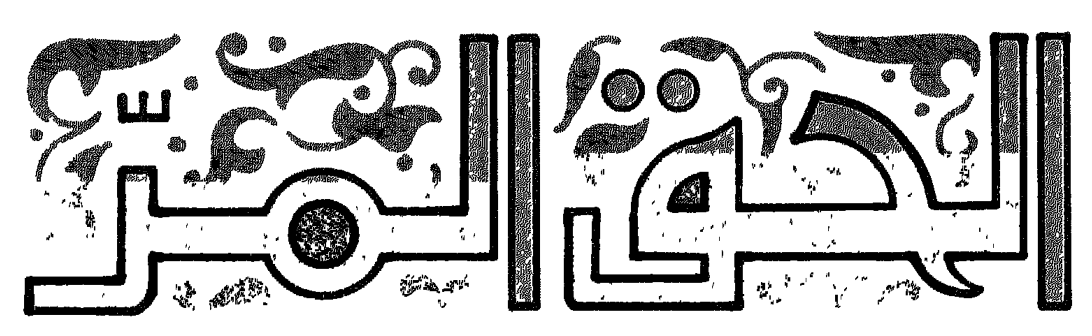
محمد الغزالي







دار الشروق

الحق المرّ

الطبعـة الأولـى
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩م
الطبعـة الثانيـة
١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م
الطبعـة الثالثـة
١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م
الطبعـة الرابعـة
١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

محمد الغزالي

الحق المرّ

دار الشروق

مقـــدمة

ما أكثر الأخطاء التى تستقر بين الناس لأنها لم تجد من يصححها فور وقوعها ...

إنها قد تدوم بعد ما تحولت إلى وضع قائم ! وللأوضاع القائمة حقوق مرعية فى كثير من الأحوال ! .

لكن لماذا يتأخر تصحيح الخطأ ؟ أو لا يختفى كل الاختفاء ؟

فى ظنى أن الجهل بالحقيقة له دخل كبير فى ضياعها ، وأكثر الناس يترك الخطأ يسير لأنه لا يعرف الصواب ! وقد رأيت جمهرة من الناس تواقع الأخطاء ـ أو الخطايا ـ وهى لا تدرى ماتصنع ...

وقد يكون الكسل الفكرى أو الضعف الخلقى وراء شيوع الأخطاء وتناميها ، وسر هذا الكسل الاستهانة بقيمة الخطأ وأثره القريب والبعيد ! أو إيثار السلامة بترك الخطأ يمرّ دون اشتباك مُتعب ! أو فقدان الحميّة للصواب والرغبة فى انتصاره وازدهاره ! .

إن للمبطلين أشواقا إلى نشر أهوائهم ، والإذاعات العالمية تسارع إلى تلبية رغباتهم بسماع كذا وكذا ، فهل لدى محبي الحق هذه المشاعر الممتدة والرغبات المتحركة فى إذاعة صواب مهجور أو حق مستوحش ؟ .

وقد يكون استقرار الأخطاء ناشئا عن ضراوة المنحرفين ، وتكميمهم للأفواه ، أو تضييقهم للدائرة التى يمكن أن يعمل الخير داخلها .. وإنى لأذكر محزونا أن هذه الكلمات التى أكتبها تحت عنوان « الحق المر » تنشرها مجلة « المسلمون » ولا أقرؤها أنا ، لأنها لا تصل إلى الأقطار التى أتنقل بينها ! ! .

وعندما ينطلق الخطأ داخل قذيفة مداها ألف ميل ، فلن تجدى فى مقاومته قذيفة مداها ألف ذراع ! .

سيستقبل الخطأ امرؤ ساذج ويتأثر به وقد يموت عليه قبل أن أصل إليه أنا بالحقيقة التى يحتاج إليها .

ويَرِدُ هنا السؤال الذى لابد منه : لماذا يكون الصواب رد فعل ؟ لماذا لايبدأ عملا إيجابيا مدفوعا بقواه الذاتية ؟ أهو الكسل كما أومأت آنفا ؟ .

لك أن تقول : لاكسل ولا مجال للتهمة ! المرض يطرأ والطبيب يُستدعى لوصف الدواء ، العوج يحدث والناصح يقدم لتسوية الصف واستدامة المسيرة على الصراط المستقيم ! .

إننى أقبل هذا التفسير بشروط : أن نضع نحن قواعد الصحة التى تحمى من العلل ، وأن نرسم المعالم التى تدل السائر على الهدف وتعصمه من الزلل ..

ولما كنت واحدا من الدعاة المكلفين بهذه الواجبات فإننى أفتش فى نفسى ، وفى رفاق الدرب الطويل الذى يجمعنا ثم أغضّ الطرف فى استحياء ! ! لماذا ؟ .

أشعر بأن اللصوص نجحوا وفرّوا بمغانمهم لأن رجال الأمن كانوا نائمين ... كم خسر الحق من قضايا لأن رجال الإيمان كانوا نائمين ! ! .

وبعدُ ، هذه طائفة ثانية من الكلمات التى سطرتها تعليقا على مايقع بالعالم الإسلامى أو مايقع عليه ! ربما فقدتْ بعض قوتها لانفكاكها عن مناسباتها التى أوحت بها ، بيد أن الذى أغرى بتأليفها وتجديدها تشابُه الآلام والأزمات التى تعرض لأمتنا فى حاضرها وماضيها ! فالمناسبات باقية ! ! .

وما يغنى ذلك أبدا عن أن يكون للدعوة الإسلامية جهاز راصد يقظ ، يكشف كل شبهة ، ويُفلّ كل هجمة ، ويرسل الرد السريع على كل تساؤل مريب فلا يدع فرصة لتلبيس أو فرية ! .

ثم إن العالم الإسلامى واسع الرقعة مديد الأطراف ، وقد تكاثرت عليه الرزايا والسنون العجاف ، ولا تزال البدع تغلب السنن ، والأوهام تغلب الحقائق ، وأنشطة الاستعمار الثقافى تعمل عملها لمحو شخصيته بعد ما اخترقت حدوده من أمدٍ ليس بقريب !

فلتكن هذه الكلمات الوجيزة إلى جانب الرسائل المسهبة جهدا إلى جانب جهد فى إسداء النفع وإيقاظ الغافلين ..

محمد الغزالى

الجزء الأول

ما نريده .. وما يراد لنا

أنا وأنت وغيرنا من الناس نشترك فى سباق طويل ، سباق قد يستغرق العمر كله ، نعرف بعده من المخطئ ومن المصيب ؟ من المصلح ومن المفسد ؟ من المتقدم ومن المتأخر ؟ أو يتكشف فيه السر المطوىّ فى قوله تعالى ﴿ ... خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ... ﴾ .

وبديهى أن يبذل العاقل قواه كلها للفوز فى هذا السباق ، لكن هناك أشياء لايكترث بها ، أو هى ليست فى نطاق إرادته لو اكترث بها تتصل بمكان السباق وزمانه وطبائع المشتركين فيه وأعدادهم .. الخ .

مايدخل فى إرادتى أحتشد له ، وما لا يتعلق بى أتجاوزه !! .

من أجل ذلك رفضت الإجابة على سؤال وُجِّه إلىّ خلاصته : لو خيرت قبل المجىء إلى الدنيا فى العصر الذى تختاره لتحيا فيه ، فأى عصر كنت تفضل .. ؟ .

قلت للسائل : إن إيمانى بربى ، وثقتى فى حسن اختياره لى يجعلانى لا أختار إلا ما اختاره سبحانه وتعالى ، فلا أحب أن أتقدم برغبة تخالف ماوقع لى ! أنا راض بهذا العصر الذى شاء ربى إيجادى فيه ! .

قال : حسبناك ستطلب الوجود فى عصر الصحابة ! قلت : إن الصحابة خيرة القرون وهم سلفنا الصالح ، ومع ذلك فإن النبى عليه الصلاة والسلام ودَّ لو يرى إخوانه ! فلما قال له الصحابة : ألسنا إخوانك ؟ قال : أنتم أصحابى ، وإخوانى الذين يجيئون بعدى ، آمنوا بى ولم يرونى . !! .

والذين يؤمنون بالإسلام ونبيه فى هذا العصر المعنت ويحافظون على شعائر الدين ضد هجوم الإنس والجن ، لهم عند الله مكانة صالحة .

وقد يشاركون بعض الأصحاب فى الفضل .. إن الغربة التى يعانيها محبو الله ورسوله لها عند الله ثواب ضخم ! ومن العبث التطلّع إلى الوجود فى عصر الصحابة ، ولكن الرجولة والحزم استغلال الواقع المتاح فى إدراك منزلة حسنة عند الله سبحانه وتعالى .

قال صاحبى : هل المسافة بعيدة بين مانريده ، ومايراد لنا ؟ أو بين قدر الله ورغبات البشر ؟ .

قلت : لا أسوق إجابة محددة ، وأكتفى بنماذج مما قصه علينا فى الكتاب العزيز ..

عندما كنت أتلو سورة الأنفال ، وأتتبع معركة بدر . قلت لمن حولى : نحمد الله لأن قافلة قريش نجت ، وفر بها أبو سفيان !

فسألنى سائل : لماذا ؟ وقد كان الصحابة يتمنون الاستيلاء عليها . وهم على أية حال أولى بها من مشركى مكة ؟ .

قلت : لو وقعت فى أيديهم ودار القتال من أجلها لقال المستشرقون : جهاد لطلب المال ، وحب الدنيا ! من أجل القافلة خرجوا وفى سبيلها ماتوا .. وسينسى المرجفون والأفاكون خمس عشرة سنة انقضت فى كفاح مرير وتضحية موصولة ، قبل معركة بدر ! فشاء الله أن تسير الأمور ضد رغبة الأصحاب ، وأن تخلص القافلة لعبدة الأوثان . وأن يتجرد الكفاح لنصرة الحق وطلب الآخرة . وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ﴾ .

وهكذا أراد الله أن يدور القتال لا تشوبه شائبة ، بين توحيد يرجو الله واليوم الآخر ، ووثنية لا ترجو لله وقارا ، ولا تنشد عنده ثوابا ، فماذا كانت النتيجة ؟ كسب المسلمون المعركة بشرف باذخ وسطوة اشرأبّتْ لها الأعناق فى جزيرة العرب ! ثم ماذا ؟ لعل أصحاب القافلة باعوا نفائسها لافتداء أسراهم فى المدينة الظافرة . ثم ماذا أيضا ؟ يحكى أبو تمام فى حماسته أن امرأة فى مكة سُمع صياحها لأن بعيرا لها انطلق فى الصحراء ، فقال أحد رجال مكة المكظومين :

أتبكى أن يضل لها بعير ... ويمنعها من النوم السهود ؟
فلا تبكى على بكر ولكن ... على بدر تقاصرت الجدود !

ألا قد ساد بعدهم أناس ولولا يوم بدر لم يسودوا !

نعم إن يوم بدر قلب موازين الشرك كلها ، وخفض رجالا ورفع آخرين ، فهل علم من يجهل ، حكمة الله فى تمكين القافلة من الفرار ، وعدم تحقيق رجاء المسلمين فى الاستحواذ عليها .. ؟ .

ومثل آخر نسوقه لما نريده لأنفسنا ومايريده الله لنا .

دخل يوسف الصديق السجن وهو أبعد الناس عن تهمة ، وأحقهم بالتكريم والإجلال ، وانتظر على مضض أن يخرج من عالم السدود والقيود ! وهيهات . ثم عَبَّرَ الرؤيا لصاحبىّ السجن ، وشعر بأن رؤيا أحدهما تدل على أن سيكون نديم الملك ، فقال له ــ وهو يتلهف على الخروج ــ اذكرنى عند ربك . كلمة مفعمة بالأمل من متهم برىء ، يطلب العدالة ، وهو أحقّ الناس بأن تعرف حقيقته وتنشر صفحته ..

بيد أن النديم المبهور احتوته أضواء القصور ، فنسى رفاق السجن ، ونسى الرجل الصالح الذى بشره بمستقبله ، وذكره بنفسه ، فلم يفعل شيئا ما لإنقاذ يوسف ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين ﴾ ! .

واليوم فى السجن ، ذاهب فى الطول مغرق فى الملالة ، فكيف ببضع سنين ؟ .

لكن الأمر بالنسبة إلى يوسف عليه السلام كان له معنى آخر ، كانت فترة السجن إنضاجا وإعدادا لمستقبل لايخطر ببال ، كانت تهيئة لأرفع المناصب فى دين الله ودنيا الناس ، كانت جمعا للنبوة والملك .

واحتاج الملك وحاشيته إلى يوسف فى أعقاب رؤيا محيرة ، ولكن الرجل الذى كان متلهفا على الخروج ، ينشد له الوسائل الممكنة تريث هذه المرة ، وأخذ يشترط قبل أن يتحرك نحو الحرية ! ﴿ وقال الملك ائتونى به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم ﴾ .

يوسف عندما طُلب للملك بعد تلك السنين الطوال كان فى حال نفسية أخرى ! لقد بطل سعيه لنفسه ، وامتد سكونه لربه ، واستكان لِقَدرِه الغالب ، واستراح لما يقع له فى الغد القريب والبعيد . فألهم الله الملك الرؤيا العجيبة ، أليس هو سبحانه الذى يتوفى الأنفس حين

موتها والتى لم تمت فى منامها ؟ فلم يخرج يوسف من سجنه فى عفو عام ، كلا . لقد عرف الجميع براءته وتقواه ووفاءه وشرفه ..

وعندما خرج من ضيق السجن كان الطريق ممهدا أمامه ليضع قدمه فى أى مكان من أرض الله الواسعة ﴿ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوَّأ منها حيث يشاء ﴾ .

إن ماصنعه الله ليوسف أفضل كثيرا مما صنعه يوسف لنفسه عندما قال لرفيق السجن ﴿ اذكرنى عند ربك ﴾ المهم هو التبتل إلى الله ، والتأميل فيه ، والرضا بقضائه ، وألا تخون الرجل خصائصه الرفيعة فى الساعات الحرجة .. ! ! .

وما قصصناه آنفا توكيد لحقيقة إيمانية تغيب عن بالنا كثيرا .

إننا نثق فى أحكامنا ومشاعرنا وقد نظنها عين اليقين وقد تكون عند البحث عين الخطأ ، ومن هنا نفهم قوله تعالى لرجال قد يكرهون نساءهم ويرخصون عشرتهن ويخططون لمفارقتهن ، يقول لهم : لا تفعلوا ، اتهموا هذه العواطف النافرة ﴿ وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴾ .

من يدرى قد تنجب من هذه الزوجات أذكى الأولاد ، وأكرمهم معدنا ، وأنضرهم مستقبلا .

ويمتد هذا الحكم من ميدان الأسرة إلى ساحات الجماعة كلها ، فالشعوب عادة تألف حياة السلام ، وتؤثر رغد العيش ، وتكره سفك الدم ، ومغادرة البيوت والأهل إلى ميادين القتال . لكن ما العمل إذا تعرضت العقيدة للاضطهاد ، والمقدسات للإهانة ، والكرامات للضياع ؟ .

إنه لا مفر عندئذ من الحرب والتعرض لمكارهها ، ومهما فدحت الخسائر فالنتائج المخوفة أفضل من النكوص على العقبين ، وذلك معنى قوله تعالى : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾

وقد تحولت أمم عن أرضها مخافة الموت فهل نجت منه ؟ إنها هربت منه فى ميدان فوجدته ينتظرها فى ميدان آخر ، ولو صمدت له فى الميدان الأول لقلّت مغارمها ومآسيها فى الميدان

يقنعهم بعبادة الله وحده لكنهم أصروا على عوجهم .. فكان لزاما على إبراهيم أن يمضى وحده فى طريقه ، وأن تتحول مخاصمته لهم إلى اعتزال ومقاطعة ، وأن يستوحش من الأقارب والأصحاب إيثارا للأنس بالله وحده . ثم يشرع بعدئذ فى بناء مجتمع مسلم يعتز بالتوحيد ، ويخطط له على وجه الأرض ، ويجادل فيه الملوك وغير الملوك ! فماذا صنع الله له ؟ قال سبحانه : ﴿ فلما اعتزلهم ومايعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب ، وكلا جعلنا نبيا ، ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾ .

إنها مكافأة سخية لرجل كان أمة ، اعتصم بالله وتحمل فى ذاته الكثير.. فجعل الله له ابنه الثانى نبيا ـ بعد ابنه الأول إسماعيل ـ ثم زاد بركته فجعل حفيده من إسحاق نبيا كذلك . وادَّخر فى عقب إسماعيل النبوة الخاتمة للرسل أجمعين ، إن بركات الله إذا انهمرت لم يقفها شيء ، فاللهم أنلنا منها حسنة فى الدنيا والآخرة ، فما لنا غنى عن بركتك !! .

وفى قصة أهل الكهف مثل لتنامى رضوان الله إلى حدود بعيدة .

إن أولئك الفتية أشبهوا إبراهيم فى مخاصمة قومهم عبدة الأصنام ، وإنك لترى نضارة الفكر المؤمن فى مسلكهم العقلى ، الإيمان لديهم نزعة تقدمية تحترم الحقيقة وتحتقر الخرافة وتجرى وراء الدليل وترفض التقليد الأعمى ! « هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة ، لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن » .

أى .. هلا أتوا بدليل واضح على مايزعمون ؟ لكن الباطل لادليل له ، ولا سناد للكذب ، ولا اعتراف بأصحابه ! « فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا » .

وجرت سنة الإيمان فى طريقها ، ونفر الشباب المؤمن من مشاركة قومهم فى مراسم الوثنية ، وقرر الاعتزال والمقاطعة ، فكان الجزاء أن خلد الله ذكرهم فى قصص خارق ووحى يتلى أبد الدهر « وإذ اعتزلتموهم ومايعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا » .

الغريب أن هؤلاء الشبان بعد رقدتهم المشهورة التى طالت قرونا استيقظوا وهم يحملون ذات العاطفة الناقمة على الشرك وأهله ، الموقنة بمصيره الكالح ، ونلمس ذلك

فى توصيتهم لرفيقهم الذاهب لشراء بعض الطعام لهم ، تلطف حتى لايحس بك أحد ، فإن القوم إذا قبضوا علينا أفقدونا ديننا ، وهنا الطامة ! «إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذن أبدا » .

يبدو أن النفس البشرية يتم تجميدها على ماماتت عليه ، لتبعث به يوم النشور دون زيادة ولانقصان ، سواء ظلت فى نومتها الأخيرة ثلاثة قرون أو ثلاثمائة قرن ، إن نهاية مشوارها فى الحياة تحدد درجاتها فى هذا السباق الكبير :

كم مرحلة قطعتها ؟ .
وكم مرحلة كان يجب أن تقطعها ؟ .
ومن الفرق بين الرقمين يعرف الناشط والكسول والسابق والمسبوق .

بيوتنا ـ وعقولنا ـ فى خطر !

العلاقات بين أفراد الأسرة ـ فى أوربا وأمريكا ـ تكاد تكون حبرا على ورق ، أو هى عنوان كبير على واقع صغير ، فالولاء للأسرة والرغبة فى جوها والتراحم والتناصر بين أعضائها بقايا قديمة توشك على التلاشى ، أو هى تلاشت فى زحام الحياة المادية المشحونة بالأنانية الطافحة والرغبات الخاصة ..

وكثير من الأمهات والآباء يذهب إلى الملاجئ ليقضى أيامه أو أعوامه الأخيرة على حين يجرى الأبناء وراء مآربهم فى هذه الدنيا ، وليلة يقضيها فتى أو فتاة مع من يحب أحظى لديه من مواساة أم عجوز أو أب شيخ ...

وقد يلتئم شمل الأسرة فى عيد ميلاد ساعة من الزمن ثم ينطلق كل امرئ إلى غايته لا يلوى على شىء ، إن المدنية الحديثة جففت العواطف الشريفة بقدر ما ألهبت العقل ، وأذكت المشاعر الخاصة ..

ونحن نعرف أن الأديان كلها أوصت بتكريم الأبوين ، وتوثيق الروابط بين الزوجين ، وتقريب المسافة بين أولى الأرحام مهما تباعدت الشقة . وقد جاء فى القرآن الكريم أن ذلك من المواثيق المأخوذة قديما على بنى إسرائيل ! ! .

والمحنة التى تقلقنا أن تفكك الأسر فى أوربا ينتقل إلينا بسرعة ، وأن بر الآباء وصلة الأرحام يوشك أن يتحول إلى ذكريات ! وقد صوّر الأستاذ مصطفى أمين هذه المحنة بقوله « يقشعر جلدى وأنا أقرأ حوادث هذه الأيام ! طالب يضرب والده ليعطيه ثمن « الهيروين » . محاسب يطرد والدته من المنزل إرضاء لزوجته . أب يقتل ولده الوحيد بسبب شقة ! أب يحرض ابنه على طعن أمه فى شرفها بعد زواج ٢٣ سنة ! أم تنتحر أمام أطفالها الثلاثة لأن زوجها ـ وهو عامل صغير ـ رفض شراء تلفاز لها .. » .

إن هذه الملاحظة سبقت إلى نفسى وأنا أطالع الصحف لأتعرف على أحوال المجتمع ! شعرت أن أمتنا تنتقل من سيئ إلى أسوأ ، وأن التربية الدينية النابعة من المدرسة ومن المسجد لا وجود لها ، وأن فراغ الأفئدة من العقائد وانفلات الطباع من القيود قد بلغا بنا مبلغا مخيفا ..

إنه لا حرج على وسائل الإعلام أن تعرض مباراة رياضية فى ساعة ونصف ساعة ، يلتفّ الصغار والكبار حول مايتخللها من صياح ومجون ، وتتوتّر الأعصاب حول النتائج ، أما قضاء بعض هذا الوقت فى محاضرة مجدية فلا ...

ولو حدث فإن المتكلم باسم الدين يملأ الآذان بقضية ثانوية أكثر مما يجتذبها بقول جادٍّ حكيم

يتحمسون لباطلهم .. ونتراخى فى حقنا !

تحدثت مع أمريكى أسلم عن موقف بلاده من النزاع بين العرب واليهود ، وشكوت أن دافعى الضرائب هناك يتبرعون بثلاثة مليارات من الدولارات صدقة جارية كل عام لكل نازح إلى فلسطين من الرجال والنساء والأطفال الذين يسهمون فى بناء إسرائيل ، أى أن لكل فرد ألف دولار أمريكى سنويا .. ! .

فقال لى مصدقا : نعم هذه هى الإعانات التى تدرج فى الموازنة العامة ! وذلك غير الإعانات التى تصل إلى إسرائيل فى الخفاء تحت عناوين شتى وتبلغ مليارا ونصف..

ثم أضاف : إن عدد اليهود فى بلادنا لا يزيد عن خمسة ملايين ، لكنهم قوة مرهوبة فى ميدان الإعلام ، والتعليم ، والاقتصاد ، وأماكن أخرى عميقة التأثير فى الحياة العامة ...

وربما أصدر الكونجرس قوانين لمصلحة إسرائيل وحدها ، مع أن هذه القوانين ضارة بالمصالح الأمريكية وذلك مثل مانشر فى صحفكم أخيرا عن رفع جميع القيود التجارية بين الولايات المتحدة وإسرائيل .

لقد أُقِرَّ هذا القانون فى مجلس النواب بأغلبية هائلة «٩٨,٥٪» أى أن ٤١٦ نائبا صوَّتوا معه على حين عارضه ستة نواب فقط ، وقد حدث ذلك فى الوقت الذى كانت جميع المراكز المسئولة فى الإدارة الفيدرالية تؤكد أن القانون يضر المنتج الأمريكى .

إن إسرائيل هى الربيب المدلل الذى نتعب من أجله ونخسر من أجله ونحن راضون ! .

قلت : أصارحك بما وراء هذا الموقف النابى ؟ إنه نتاج التلاقح بين الفكر اليهودى الكاره للعرب والمسلمين ، والنفسية الصليبية المنطوية على الشعور نفسه ! حتى إننى أتساءل فى حيرة : هل استغل اليهود النصارى لضربنا ؟ أم أن النصارى هم الذين يستغلون اليهود لإذلالنا واستباحة حقوقنا ..

وسواء كان هذا الأمر أو ذاك فالنتيجة واحدة ، سلسلة من الآلام والهزائم تتلاحق مدنيا وعسكريا ليطيح فيها مستقبل الإسلام وأبنائه .

والمأساة لاتكمن فى هذا التجمّع الحقود ، فالقوم منطقيون مع مبادئهم وتاريخهم ! إننى قرأت أنباء المظاهرات الصاخبة التى قام بها اليهود المتدينون لمنع العروض المسرحية يوم السبت ! فأدركت أن القوم متشبثون بشعائرهم ، يرفضون التفريط فى ذرة منها ...

أما العرب ــ وهنا المأساة ــ فشعورهم الإسلامى فاتر وعملهم لدينهم واهن ، وانتماؤهم الجهادى له مضطرب أو منكور ، بل إن العلمانية لاتزال شعارهم الغالب !

قلت ليس لدىّ إلا أن أتلو قوله تعالى : « ولو رحمناهم وكشفنا مابهم من ضر لَلَجُّوا فى طغيانهم يعمهون . ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون » .

هل يتحمسون لباطلهم ونتراخى فى حقنا ؟ أمَا نثوب إلى رشدنا ؟ .

هــزل فاضــح !

ليس الدين طلاء خادعا فوق كيان دميم ! إنه علاقة بالله أساسها التقوى ، والتقوى مسكنها قلبٌ حساس صاح يتحرك بمشاعر الخوف والرجاء ، ويتحرى مرضاة الله ، وطلب ماعنده ! .

ومذ بعث الله أنبياءه ، وكلفهم بهداية خلقه تقررت هذه الحقيقة حتى يعلم البشر أن الدين جهاد نحو الكمال ، وكفاح لوساوس الإثم قال تعالى : « ولقد وصّينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ، وإن تكفروا فإن لله مافى السموات وما فى الأرض وكان الله غنيا حميدا » .

جاشت هذه المعانى فى نفسى عندما جاءنى فتى يسألنى على استحياء وبقلق : هل صحيح أنك تنكر السنة ؟ ففزعت لسؤاله وقلت على عجل : كيف أنكر السنة ؟ إن كتابا واحدا من مؤلفاتى ضمّ أكثر من ألف حديث فأنى تتجه لى هذه التهمة ؟ قال : سمعنا من أحد العلماء أنك أنكرت سنة السواك ! .

قلت : عجيب ! لقد شرحت فى نظافة الفم وأنا أتحدث عن خلق المسلم قيمة السواك فى تذويب الفضلات وتقوية الأسنان واللثة .. يابنىّ إن الذى اتهمنى كاذب إن صح نقلك عنه ! فأكد لى أنه يعى مايقول ...

ثم تذكرت بغتة أننى نقدت شابا دخل مكتبة عامة فى مدينة كبرى بالولايات المتحدة ، وكان فى زحام الداخلين للمطالعة يضع فى فه سواكا ، يديره يمنة ويسرة ، ويدلك به جوانب أسنانه بقوة ، والنظارة ترمقه باستنكار ، أو ترمق الدين الذى ينتمى إليه والبلد الذى جاء منه باشمئزاز ..

الواقع أن المنظر غاظنى ! وتعريض الإسلام للقيل والقال بهذه الصورة لامعنى له

ماذا على الشاب لو استاك فى بيته واطمأن إلى نظافة فمه قبل أن يخرج من بيته ؟ إن نبينا عليه الصلاة والسلام قال : « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك لكل صلاة » . فسنة السواك لاتتناول بهذه الفوضى ، ولا تعنى أن نقتحم المجامع والمجالس ونحن نبتلع ريقنا أو نقذفه على هذا النحو...

ذاك ماكتبته على ما أذكر ، لكن رجلا مُسْوَدَّ السريرة شاء أن يقذفنى بكراهية السنة النبوية ، وأن يجعل قذفه فى حديث عام..

إن سنة محمد صلى الله عليه وسلم تراث من الحكمة والنور والسموّ لا يعرفه إلا من ترشح لذلك بالأدب والخشية والإنصاف ، « وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » .

إنه من الهزل الفاضح الواضح أن تكون شارة السنة ثوبا أبيض على قلب أسود أو بعض العطور على سرائر متغيرة كدرة ! الدين موضوع قبل أن يكون شكلا ، وجوهر قبل أن يكون مظهرا ، وحكمة فى الرأس قبل أن تكون شعرا يطول أو يقصر. !!

إلى الذين يتهموننا بالرجعيـة !

فى حوار مع كاتب علمانى أكدت ما ذهب إليه المحققون أن حركة الإصلاح الدينى فى أوربا تأثرت بتعاليم الإسلام وامتداد سلطانه ! قلت : إن تحريم الرهبانية ، وإباحة الزواج لأهل النسك والعبادة جاء من عندنا ، وإن مقاومة الاحتكار البابوى لتفسير الإنجيل جاء من عندنا ! .

بل إن اعتبار القربان رمز لا حقيقة جاء من سطوة التنزيه الإسلامىّ ، واستبعاد حلول الله فى مخلوقاته ... ! .

قال لى الكاتب : وما حكاية القربان هذه ؟ قلت : يقصّ الإنجيل أن عيسى قبل أن يصعد إلى السماء تناول العشاء مع حوارييه مُودِّعا إياهم ، وفى أثناء الأكل تناول لقمة من الخبز وقال : كلوا هذا جسدى ، وشرب جرعة من الخمر وقال : اشربوا هذا دمى ..

فنشأت من هذه الكلمات عقيدة نصرانية تقول : إن الخبز والخمر يتحولان إلى جسد الرب حقيقة لا مجازا ! ولما كان القسس خلفاء للمسيح فإنهم فى شتى الأحفال الدينية يحضرون الخبز والخمر ويتلون عليهما كلمات المسيح فى العشاء الربانى ، فيتحولان إلى جسد المسيح ، ومع الأكل والشرب يسرى الكيان الإلٓهى فى البشر ويحلّ يسوع الرب فى أشخاص الآكلين ! .

وتضع الكنائس هذا المزيج من الخبز والخمر فى حُقٍّ ثمين ، وترفعه فوق المذبح ويقع السجود له باعتباره الإلٓه نفسه ! .

كانت تلك عقيدة المسيحيين أجمعين ، وكانت الكنائس المختلفة متفقة عليها حتى جاء عهد الإصلاح الدينى ، وتأثر لوثر وغيره بالمقالات الإسلامية فقرر البروتستانت أن

القربان مجاز لا حقيقة ورمز فقط وليس بابا للحلول ...

وقد انفرد البروتستانت بهذا الفهم المتأثر بالامتداد الإسلامى وبقى الكاثوليك والأرثوذكس على العقيدة الأولى ...

ونحن المسلمين ننكر بشدة أن عيسى عليه السلام شرب قليلا أو كثيرا من الخمر، وندرك أن الخبز يستورد من الأفران، وأن الخمر تشترى من الحانات، وأن تحولها إلى جسد الإله أمر يتعذر قبوله أو تصديقه ..

ومن الغريب أن خلافا حادا نشأ فى القرن الماضى بين مجلسى اللوردات والعموم فى انجلترا : هل القربان المذكور حقيقة أو مجاز؟ انتهى آخر الأمر بغلبة التفسير البروتستانتى .

ونحن نهدى هذه القصص كلها إلى بعض الصحافيين العرب الذين لاهمّ لهم فى كتاباتهم إلا لمز الإسلام ووصفه بالرجعية ! وآفة هؤلاء القوم التصور العلمى، والجهل بالدين والتاريخ على سواء .

وعلينا استنقاذ الأجيال الجديدة من براثن هؤلاء الأغرار .

العلمانيون والإسلام

كتب الدكتور «لويس عوض» يصف العلمانية بأنها الحرية العقلية ، واستقلال الشخصية ، واحترام حقوق الإنسان ، والشعب ، والتمشى مع منطق الحضارة ... الخ .

قلت على عجل : إذا كانت هذه هى العلمانية فكلنا علمانيون ! وتذكرت فى خداع العناوين قول القائل :

إن كان رفضا حبُّ آل محمد ! فليشهد الثقلان أنى رافضى .. !

إن الدكتور لويس من قادة الفكر الغربى المهاجم على أمتنا بضراوة ، وهو فكر يتجاوز تراثنا كله ويهيل عليه التراب ويحل محله فكرا آخر يعادى عقائدنا وشرائعنا وتقاليدنا وأهدافنا خصوصا مايمتّ منها إلى الإسلام ...

وقد أصدر الدكتور أحكاما غريبة تتسق مع هذا الفكر الغازى الحقود . فالمعلم « يعقوب حنا » عنده زعيم قومىّ محترم . وهو رجل خان مصر وانضم إلى فرنسا فى حملتها الشهيرة ، وألف فرقة من قومه تساند الفرنسيين فى الوقت الذى اقتحموا فيه الأزهر وربطوا خيلهم بأعمدته ! .

هذا الخائن الخسيس زعيم كبير ، أما الثائر العقلانى الذى لم ينقطع له صراخ طول حياته لتأليب المسلمين على الاستعمار ، فهو جاسوس جدير بالنبذ والإهمال ..

إن العلمانية ــ كما ترى ــ كره أعمى للإسلام ورجاله ، وحب أعمى لمن يخونون قضاياه ويظاهرون خصومه ..

وتوفيق الحكيم علمانى عظيم لماذا ؟ لأنه فى العهد الناصرى أدركته غيبوبة عميقة فلم يقل كلمة فى مأتم الحرية والشرف ومذابح الإيمان والكرامات التى روعت مصر كلها

ومرغت الوادى المرهق فى العذاب الهون ، فلما صحا من إغماءته وكتب عودة الوعى كتبه بعد ماوثق حباله بتل أبيب وسائر العواصم التى تقول : خلقت إسرائيل لتبقى .. !

أما المسجد الأقصى الأسير فمستقبله لايعنى العلمانية فى قليل ولا كثير ! .

إن العلمانيين متخصصون فى ضرب الإسلام وحده ، وقضايا أمته المهيضة الأجنحة ...

ومن أغرب ماقرأت محاولة إلحاق العقاد بركب العلمانية ! والعقاد مؤلف العبقريات التى أضاءت التاريخ الإسلامى وجلت الآفاق التى يتألق فيها رجاله ، وهو الذى ألف للمؤتمر الإسلامى « حقائق الإسلام وأباطيل خصومه » وداس أفكار الملاحدة الحمر وغير الحمر بفيضه الفكرى الدافق ، إنه الرجل الذى لم ينحن يوما لصاحب سلطة على حين رأينا العلمانيين يكثرون عند الطمع ويقلّون عند الفزع وتسمع لأقلامهم زحاما منكرا كلما أراد الاستعمار الثقافى زحزحة أمتنا عن معالمها ، وشدّها بعيدا عن محاور الوحى وتكاليف الإسلام ! .

يحاربون التدين .. لا التطرف

فقهاء الإسلام ودعاته يخاصمون التطرف الديني ويعترضون تياره في المجتمع ! لكني لاحَظْتُ أن هناك فريقا من الساسة الخبثاء ، وسماسرة الاستعمار الثقافي يعلنون الحرب على الدين نفسه تحت عنوان محاربة التطرّف الديني ..

ليس تحجب المرأة تطرفا ، وليس التحاء الرجل تطرفا ، وليس اعتبار العربية هي اللغة الأولى للأمة تطرفا ، وليس رفض القوانين الأجنبية تطرفا ، وليس إيثار التقاليد الإسلامية تطرفا ، إن هذا كله دين والتشبث به فريضة والدفاع عنه حق على كل مسلم .

ومن ثم فنحن نرفض مسالك كل من يتصايحون ضد هذا الاتجاه ، أو يثيرون الريبة حوله ، أو يحاولون اتهام أصحابه ! ونرى أن عملهم نوع من الفراغ الديني ، والفراغ الديني أخطر من التطرف الديني .. ! .

إن الفراغ الديني في عصرنا هذا كفر بالله والمرسلين ، وانسياق مع شهوات البشرية الجامحة ، أما التطرف فسوء فقه وقصر نظر ، أو جهل بالدين وأهدافه وأصوله ، ونحن نعاني الأمرين من كلا الفريقين ، فالفارغون من الإيمان تربَّوْا على موائد الاستعمار العالمي ، وحكموا على الأمور كلها بمنطقه ، وهم يرتقبون تصرُّفا أحمق من بعض المؤمنين ليجتاحوا حقيقة الإيمان كلها ، والشعار الذي يرفعونه هو محاربة التطرف ، والغاية التي ينشدونها محو الإسلام ذاته .. ! ! .

ومع كرهي لأعداء الإسلام وخبرتي بأساليبهم في كيده أعلن أن المتطرفين البله يعطونهم فرصا شتى للنيل منه وإلحاق الهزائم به في شتى الميادين .. لقيني يوما أحد الشباب ونظر إليّ بمقت ظاهر وقال لي : رأيت صورتك على بعض كتبك ! قلت : وأنا كذلك رأيتها ، وضعها الناشر على غير مشورة مني ، ولو سألني الرأي ماوافقته ! فلما رأيتها

لم أكترث ولم أكتئب ، لاشيء هنالك ! قال : أليس التصوير حراما ؟ قلت ببرود : لا ! قال : لقد مزقت الكتاب ، وتواصينا بالتنفير منه ومنك ! قلت : قرّت بكم عيون أعداء الإسلام ، مايطلبون غير هذا ...

وجاءنى يوم صديق ، وأخبرنى أنه استأجر خادمة نصرانية لبيته وأنها اشترطت قبل تسلّم العمل أن تغيب ساعات يومى السبت والأحد للذهاب إلى الكنيسة ! ! واستمعت إليه وسرح بى الفكر بعيدا ، فلما رآنى شاردا قال لى : فيم تفكر ؟ قلت وأنا أعود إلى قضيته من حق فتاتك أن تذهب إلى معبدها غير أنى آسى لجماهير النساء عندنا ، فقد انقطعت حبالهن بالمساجد ، ماتحرص سيدة ولا خادمة على الذهاب إلى المسجد ، لأن المتطرفين صبُّوا فى آذانهن أن الذهاب إلى المسجد محظور ...

تواطؤ على تيسير الجريمة

شعرت ـ وأنا أرمق القوانين التى وضعها الناس لأنفسهم ـ أن هناك تواطؤا على تيسير الجريمة ، وعطفا على مسالك المجرمين وتباطؤا متعمدا على محاسبتهم وأخذهم بما جنت أيديهم كأن المجرم مهما فدح عدوانه إنسان جدير بالعطف ، حرىّ بالنجاة والعفو ! .

وفى كثير من دول الغرب التى نعجب بها يغتصب وحش فتاة أو أكثر ! ثم يقتل فريسته ! ثم يقاد بعد محاكمة غريبة إلى السجن ليقضى بقية حياته فى ضيافة الدولة . وفى مشاهدة التلفاز ! .

إن عقوبة الموت ألغيت فى أغلب هذه الدول ، وأعداد من المجرمين يسلبون غيرهم الحياة والعرض ، ويقترفون مناكر غليظة تجعل القضاء عليهم عدلا . والخلاص منهم رحمة بالناس . ومع ذلك فضمير القانون الوضعى مستتر وجوبا ، أو لاوجود له! وقد يحكم هذا القانون بالسجن نحو مائة عام على رجل ارتكب جملة جرائم . وهو حكم أقرب إلى الهزل منه إلى الجدّ ...

وهناك آثام رفض القانون ابتداء تجريمها ، فشرب الخمر ليس جريمة ، وتراضى اثنين على فاحشة ليس جريمة ، وقد ينظر القضاء الوضعى إلى ملابسات تحيط بإحدى الجرائم ثم يقرر إلغاء العقوبة أو تخفيفها .. وأعتقد أن حاضر العالم ومستقبله محفوفان بالأخطار مابقى هذا البلاء ! .

منذ أيام قرأت أن عصابة من الأشرار اختطفت امرأة من رجلها ، واغتصبتها ، وقبضت الشرطة على بعضهم وفر آخرون ! إن هذه القضية سوف تبقى أمام القضاء بضع سنين ، ولا أدرى مامصير المتهمين ؟ ربما قيض الله لها رجلا مسلما فحكم بقتل المجرم ، وسيكون التنفيذ سرًّا بعد أن ينسى الناس القصة ! .

لماذا لايكون القضاء مستعجلا ، وينفذ حكم الموت فى ميدان مشحون بالخلق حتى تؤخذ العبرة من العقاب المرصد ؟ أليس يقول الله : « لا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » .

الحق أن واضعى القانون الأرضىّ ينظرون إلى أنفسهم وأهليهم عندما يشرعون ، يضع المرء منهم نفسه أو ولده موضع المجرم ، ثم يصدر الحكم الذى ينقذه من عواقب سقوطه .. يقول : الخطأ يُستدرك ، والخطيئة تُغتفر ، أما الضحايا فدماؤهم وأعراضهم هَدَرٌ جرى به قدر .. ! .

والويل للدنيا كلها من هذه الفلسفة الحيوانية فهى ليست إلا عودة إلى الجاهلية .

مغالطات الفاتيكان

فى الوثيقة الأخيرة التى أصدرها الفاتيكان لتبرئة اليهود من دم المسيح لوحظت عدة أمور. أولها : زعم الفاتيكان أن اليهود لم يحاربوا المسيح ، ولم يبسطوا إليه أيديهم بالأذى ! .

وهذا زعم يناقض الواقع التاريخى ، كما يناقض نصوص الأناجيل الكنسيّة المتداولة بين أيدى القوم ، والتى تقرر أن اليهود هم الذين سعوا إلى الحكام الرومان وحملوهم على صلب المسيح ، وإهدار دمه ! ! .

والأمر الثانى : زعم الفاتيكان أن أرض فلسطين هى أرض اليهود القدماء ، أجداد اليهود المعاصرين ! وهذا كذب.. فإقامة اليهود فى فلسطين كانت طارئة. وقد دخلوها غزاة مقاتلين سكانها العرب الذين عاشوا بها أعصارا أضعاف ماعاش بها اليهود ! فكيف يقال للطارئ إنه أصيل وصاحب حق أكثر من صاحب الأرض الأول ؟ .

وثالثة الأثافى فى وثيقة الفاتيكان الزعم بأن وجود إسرائيل فى هذا العصر الأسود هو إرادة الله ، أى رضاه بقيام دولة لليهود تعذب العرب ، وتخرجهم من بيوتهم إلى العراء ، وتعرّض رجالهم ونساءهم وأطفالهم للمهانة والإذلال حتى الإبادة ...

هذه إرادة الله التى لا تقاوم كما يرى الفاتيكان ...

إننا نحن المسلمين نتلو فى كتابنا « وما الله يريد ظلما للعباد ... » أما آباء الكنيسة الكاثوليكية فيرون أن إقامة إسرائيل واستبقاءها هما إرادة الله التى تعبر عن رضاه ومباركته ...

إن الفاتيكان يعلم مسار الفكر اليهودى ونظرته إلى الأمم كلها على أنها مخلوقة من طين نجس ، وأنهم ماخلقوا إلا ليكونوا لليهود خدما ، وأنهم ليست لهم حقوق مادية أو أدبية بل هم والبهائم سواء ...

كما يعلم الفاتيكان ما جاء فى التلمود أن اليهود أحب إلى الله من الملائكة ، وأنهم من عنصر الله كالولد من عنصر أبيه ، وأن من يصفع اليهودىّ كمن يصفع الله ، ولولا اليهود لارتفعت البركة عن الأرض واحتجبت الشمس وانقطع المطر..

ويعلم الفاتيكان كذلك ماجاء فى مواريث اليهود الفكرية : أن من يحاكم يهوديا بجريمة سرقة أو غش أو خداع أو زنا ضد شخص غير يهودى فقد اعتدى على حق من حقوق اليهود . .

يعلم الفاتيكان هذا ، وأكثر منه عن إسرائيل ! ومع ذلك فقيامها يمثل إرادة الله ! ! لماذا ؟ لأنها تحارب العرب والإسلام ! أى أنها تقف معه فى جبهة واحدة بإزاء خصم يجب الخلاص منه ...

ليت شعرى متى يعرف المسلمون من يتربص بهم ويود لحاضرهم ومستقبلهم البوار ! ! .

الأقباط فى مصر

قرأت ما نشره الجهاز المركزى للتعبئة والإحصاء عن أعداد السكان فى مصر حسب انتماءاتهم الدينية وذلك حتى أوائل سنة ١٩٨٦ للميلاد ، جاء فى هذه النشرة أن عدد النصارى ٢,٨٢٩,٣٤٩ وأن نسبتهم إلى جملة السكان ٥,٨٧٪ ...

وكانت معلوماتى السابقة تقترب من هذه الحقيقة ، ولذلك لم أشعر بشىء من الدهشة ، غير أن أحد الناس سألنى : ماتعليقك على هذا الإحصاء؟ قلت : لاشىء عندى ! إن الأقباط الذين يقاربون ثلاثة ملايين لهم حقوق أمثالهم من المسلمين لاينقصون ذرة ، وعليهم واجبات ثلاثة ملايين مسلم لايزادون شيئا ، وقاعدة الإسلام من قديم أنهم جزء من الأمة لهم مالنا وعليهم ماعلينا ...

قال : لا أعنى هذا ، وإنما أشير إلى أن هناك شائعات تردد أن نسبة النصارى أكبر!! قلت : إن هذه النسبة معروفة منذ كان الإنجليز يحتلون مصر ويشرفون على مايقع فيها من إحصاءات عامة ، ومن الحماقة تصوُّر أن الإنكليز كانوا يحابون المسلمين بتقليل النصارى ! إن المماراة فى هذه المقررات لون من العبث ..

قال : لكن بعض الإذاعات تضاعف أعداد المسيحيين فى مصر وغير مصر مثنى وثلاث ورباع ، بل قال أحد المذيعين : إن النصارى فى مصر نحو ثلث السكان !! قلت : إنه لم يزعم ذلك فى مصر وحدها ! بل قال ماقال عن مصر والسودان والشام وغيرها .

وغرض الاستعمار العالمى واضح من ترديد هذه الأكاذيب ، إنه يريد إشعار غير المسلمين بأن لهم حقوقا مغتصبة ! وأن عليهم مقاومة هذا الاغتصاب ، والمناداة باسترداد ما أخذ منهم ، ورفض المظالم التى توقعها الكثرة الإسلامية بهم .. الخ .

وفى أيام الاحتلال الأجنبى للشرق الإسلامى كان المثقفون المسلمون مطاردين فى الأجهزة الإدارية ، بل إن دخولهم كان ممنوعا فى بعض المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية ..

فلما تحررت البلاد ، وأخذ الميزان يميل إلى الاعتدال بقى الدسّ الاستعمارى يريد استبقاء المسلمين غرباء فى بلادهم ..

ويعتبر لبنان نموذجا مجسَّما لهذا العوج فالموارنة فيه طائفة أقل من غيرها ، لكن الاستعمار شاء أن يجعل زمام الحكم فى يدها ، وأن يجعل الرياسة العليا لها ، فلما أحس الآخرون بالحيف ، وتطلعوا إلى العدل رفضت الصليبية النزول عما اكتسبت ، وآثرت خوض حرب مضت عليها إلى الآن سنوات طوال ..

ويبدو أن منطق الجشع يريد أن يكسب كل شىء ولو على أنقاض المدن والقرى ، إنه لايتصور أن تجمعه مع المسلمين قسمة عادلة ! .

إن أقليات كثيرة تريد أن تدوس الأكثرية لا لشىء إلا لأنها أكثرية مسلمة ..

نطالب نصارى الشرق

أطلب من نصارى المشرق ـ وهم يعيشون بين ظهرانى كثرة مسلمة ـ أن يحترموا معانى الإخاء والوفاء والمحبة والعدالة التى يجب أن تفيض ولا تغيض ، ولهم على المسلمين مثل ذلك ! .

إن الأمة الإسلامية تواجه أياما عجافا ، وهزائم سياسية وثقافية كبيرة ، ولا عجب فى ذلك فتاريخ الأمم كلها بين مد وجزر ، وقد يسىء المسلمون إلى ربهم وأنفسهم ويتعرضون بذلك لعقابه ، ولم يستثن الله أحدا من سننه الصارمة .

بيد أننا إذا كبونا نهضنا ، وإذا نسينا ذكرنا ، وسرعان مانعود إلى الصراط المستقيم الذى انحرفنا عنه ، وسرعان مايعود إلينا برّ الله بنا ونصره لنا ، فنحن الأمة التى توحده وتمجدّه وتقدره حق قدره. ومن غبش الفجر، إلى حمرة الشفق، إلى أوائل الليل، تنبعث صيحات المؤذنين من مئات الألوف من المساجد «.الله أكبر الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله .. الخ » .

ونريد أن نصارح الطوائف التى عاشت دهرا بيننا فنمت وربت على حين فنيت طوائف فى مثل ظروفها ، نريد أن نصارحها بأنه لا يجوز استغلال متاعبنا للنيل منا ومحاولة الإشراف علينا ! . لأن الاستعمار الأجنبى غلبنا ورجح كفتها علينا .. ! ! .

إن لبنان يحترق من عشر سنين أو يزيد لأن قلّة دينية تأبى إلا أن تسود وتقود وتفرض صبغتها وشعائرها وتميت شرائع الإسلام وصبغته .

وقد أَلِفتْ طوائف دينية أخرى أن تزعم عددها أضعاف الحقيقة الثابتة فالذين عددهم ثلاثة ملايين أو أقل يصيحون بأنهم ثلاثة عشر مليونا ليكتسبوا حقوقا مادية وأدبية ليست لهم على حساب الكثرة المسحوقة ! ! .

وهناك مقالات وقحة تطالب المسلمين أن ينسوا دينهم تارة فى ميدان العقيدة ، وتارة فى ميدان التشريع ، وتارة فى ميدان الانتماء والولاء ، حتى لأصبحت القومية الإفريقية أولى بالتقديم من الأخوة الإسلامية ! ! .

فللقومية الإفريقية تاريخ أنضر وأزهر فى مجال الحضارة والارتقاء ! ! .

إن الإسلام سوف يتجاوز الكبوة التى عرضت له ، فليقصر الذين ينالون منه ويظاهرون عليه وإلا فسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

محاذير الزواج من الكتابيات

بلغت سطوة الحكم العلمانى حدًّا بعيدا فى أقطار شتى من العالم الإسلامى ، ومكن لها الاستعمار الثقافى وعجز المقاومة الإسلامية حتى وقعت أمور ما كانت لتخطر ببال ..

لقد سجلت أجهزة الإحصاء فى فرنسا أن هناك ٩٦٧ امرأة مسلمة تزوجن من فرنسيين ، وذاك سنة ١٩٧٨ ، وقد أخذ العدد يزيد كل عام حتى وصل ١٣٦٠ سنة ١٩٨٠ ، ثم هبط إلى ١٠٠٢ سنة ١٩٨١ .

ولا ندرى كم عددهن فى هذه السنة ! فنحن المسلمين لا نضبط أحوالنا بإحصاء ، إذ أن أمرنا فُرُط ، وشئوننا فوضى .

وتقول صحيفة الشعب الجزائرية « فى أغلب الحالات لم يغير الزوج دينه ! ثم تناشد علماء الدين فى المغرب العربى الكبير أن يتدخلوا لوقف تزايد زواج المسلمات بالمسيحيين ، وتقول : كان نادرا جدا أن يقع هذا أيام الاستعمار ! ! » .

وأقول : إن خسائرنا من الاستعمار الثقافى أضعاف خسائرنا من الاستعمار العسكرى ، والمؤسف أن الانحدار مطرد ثم إن ماوقع لا يسمَّى زواجا ! ، إنه سفاح وليس بنكاح .. ! ! .

قال رجل كان يقرأ معى الصحيفة المحذِّرة : لاتنس أن هناك إحصاء آخر يقول : إنه فى سنة ١٩٧٨ تم الزواج بين ٢٨٦٥ فرنسية ومثلهن من المسلمين ، وبلغ المسلمون الذين تزوجوا فرنسيات سنة ١٩٨١ م ٥٠٠٠ أى تضاعف العدد تقريبا ، ولا ندرى ما تم الآن ..

قلت : إن كفة الخسائر مع ذلك لاتزال راجحة ، فإن هذا النوع من الزواج يقع فى الأغلب بين مسلمين تائهين ، ومسيحيات واعيات .

وقد راقبت الأسر التى تكونت على هذا النحو فوجدت الأولاد يشبّون على غير الإسلام ، وشكا إلىّ رجال أصابتهم هذه المحنة أنهم لما عادوا إلى أوطانهم أبت نسوتهم العودة معهم وبقين فى فرنسا ! وفقد الرجل زوجته وأولاده جميعا ..

الحق أننا يجب أن نراجع قضية الزواج بالكتابيات ، هل هن كتابيات حقا ؟ وإذا كن كما يزعمن فهل هن محصنات حقا ؟ هل البيئات التى تجعل الاتصال الجنسى حقا مقررا للجسد لا دخل للدين ولا للخلق فيه يمكن أن يوثق بها ، وتختار الزوجة من فتياتها ؟ .

إن الزواج عندنا ليس قضاء وطر ، وإدراك شهوة حيوانية ! إنه امتداد لأمة ذات رسالة ، وبناء لأجيال تقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

فهل نعى ذلك أم نفقد شخصيتنا ونتبع شهواتنا ؟ .

لو أنهم حاربوا المباذل والمفاسد !

لو أن عشر ماتبذله الصليبية العالمية فى حرب الإسلام بذل فى محاربة الزنا والربا لارتفع مستوى الحضارة الحديثة واعتدل ميزانها وكان للأجيال الجديدة خلق أزكى وكان للتقاليد التى تسود الأرض منهج أرق ..

لكن علماء أهل الكتاب المحدثين صورة طبق الأصل لآبائهم الأقدمين يَسْلقون الإسلام بلسان حاد ، ويدعون شعوبهم تقترف المناكر « لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ! ! لبئس ما كانوا يصنعون.» .

اقرأ معى هذه القصة منقولة عن مجلة فرنسية .. كان عمر « ساندرين » اثنتا عشرة سنة ، ولما كانت طالبة مجتهدة شديدة الثقة بنفسها فقد حظيت بمحبة أسرتها التى كانت تستقبل « لويس » صديق الفتاة على الرحب والسعة ! . بلغت « ساندرين » سن المراهقة ، وخاضت تجربتها الجنسية الأولى فى الثالثة عشر من عمرها ، وكانت لها الحرية المطلقة فى الخروج ، وفى معاشرة من يكبرونها ، وقد تعرفت على صديقها « لويس » فى هذا الجو ، ونمت علاقتهما بسرعة ! وفى عطلة الصيف حصلت « ساندرين » على إذن من أوليائها بالذهاب مع « لويس » إلى جزر الكنارى ، ومع عودتها كانت الفتاة حاملا ...

قالت المجلة : لقد تعمدت ذلك بدافع رغبة صبيانية لا غير ! وفى ذلك تقول : لقد كان حبى الأول وكنت أريد منه طفلا ! أما « لويس » فقد كان موقفه شديد البرود ، وكان تعليقه منحصرا فى هذه الكلمات : البنات يعرفن كيف يتصرفن باستخدام الأقراص المانعة للحمل ! لقد كانت « ساندرين » تريد طفلا وهذه مشكلتها ..

إننى أسأل : هل هذا الوسط يعرف شيئا اسمه الإيمان بالله ، وعفة النفس ؟ هل سمع يوما أن الزنا حرام ، وأن لأعراض النساء حرمة ؟ هل مرّ بخاطره أن هناك شيئا اسمه اليوم

الآخر ، وأن كل امرئ يقدم حسابا عن سلوكه هنا على ظهر هذه الأرض ؟ وأن كل نفس بما كسبت رهينة ؟ .

إن شيئا من هذا لايخطر ببال.. إن رجال الدين مشغولون بشيء واحد هو محاربة الإسلام ، وشتمه بألفاظ قبيحة لأنه يبيح تعدد الزوجات ... إن هذا التعدد سُبَّة . أما اتخاذ الأخدان وقدرة شاب ذئب على اصطياد ماشاء من فتيات مهما بلغ العدَد فأمر لايستحق الذكر...

لست ألوم بابا الفاتيكان على رحلاته التى يهاجم فيها التعدد ، ويتناول فيها الإسلام تصريحا أو تلميحا ! إننى أتساءل : أين نحن ؟ وماذا نصنع للإسلام ؟ بل ماذا نصنع به ... ؟ .

إنهـا مؤامـرة ضــد الإسـلام

شعر حماة الإسلام أن دائرة الهجوم عليه تتسع فى هذه الأيام . وأن الأشخاص الذين يَتَسَمَّوْن بالعلمانيين تزيد حدّتهم ، وتتفاحش نقمتُهم ، وتتساقط الأقنعة عن وجوههم .

وأريد أن أسلط ضوءا على هذه العصابة يكشف خبيئتها ويفضح ماوراءها ...

إذا كانت العلمانية بعدا عن الدين كله كما يزعم أصحابها ، فالحقيقة أنها حرب على الإسلام وحده فى أقطاره المهددة بصنوف شتى من الاستعمار الثقافى والاجتماعى والقانونى ولذلك يتعاون فى دعمها الصليبيون والصهاينة والملاحدة جميعا ..

ومعروف أن العالم العربى يعتنق الإسلام ، وأن النصارى ، واليهود العرب لاتزيد نسبتهم فى أراضيه بين المحيط والخليج عن ٣٪ ، وأن توهين الإيمان وزلزلة دعائمه ستصيب المسلمين أول ماتصيب ، بل إن الإسلام وحده هدف الهجوم ! .

ولا علاقة بين العلم المجرّد وبين هذا الهجوم الخبيث . فالعلمانيون أجهل الناس بالإسلام وتاريخه وتراثه وأصوله وفروعه ، ولو أنهم شغلوا بعض وقتهم بالتعرف على الإسلام وكتابه وسنته وشروح القدامى والمحدثين من أئمته لكان لهم موقف آخر ، بدل تحاملهم الأعمى عليه ...

وهم مع الاستبداد السياسى حتى يتم قهر الإيمان أو هدم الإسلام بالعبارة الصريحة ! وماذا بعد هدم الإسلام ؟ استمكان الإلحاد من أمتنا وانفراده بزمامها وانطلاق الغرائز الدنيا تعربد كيف تشاء ...

وإذا كان العلمانيون يعطون صورا دميمة لأحكام الشريعة وينذرون بالظلام القادم فلنعط نحن صورة للمجتمع الإلحادى بعد أن يتجرد من جميع القيم السماوية : يقول «لوى بووَلس» فى صحيفة الافتتاحية الفرنسية : قرأت كتاب «ليس الحب أمرا

محزنا » طبعة دار « مازارين » ماذا فى هذا الكتيب ؟ أن علاقة اللواط أمر هين وطبيعى ، وأنه لو لم يكن المجتمع متخلّفا ، وقاهرا لغرائزنا ، إذن لكنا جميعا على قدر كبير من الازدواجية .. ! ! .

ويقول الكاتب المحافظ الغاضب لقيمه « نلمس فى هذا الكتيّب ثناء على من يحترمون الأطفال بإشباع رغباتهم معهم ! ، كما نعلم منه إمكان علاقة حبٍّ جدٍّ مرضية مع المحارم » ! ! .

إن الإلحاد ، أحمر كان أو غير أحمر هو انحدار حيوانى سحيق ، والعلمانيون الكافرون بالإسلام المستميتون فى تمويت شرائعه يجرُّون أمتنا المهيضة إلى هذا المنحدر .

ليس لدى القوم علم نناقشه ، إن القوى المشغولة بضرب الإسلام تحركهم هنا وهناك ليحولوا أرض الإسلام إلى خرائب ينعق فيها البوم .

إلـه واحـد .. ليس كمثله شـيء

كان حديثه عتابا شممت منه روائح التحدى ! فقلت له : امض فى كلامك ، وسوف أصغى بتدبّر... قال : تصفوننا نحن النصارى بأننا مثلثون ، وهذا باطل فنحن موحدّون ! قلت : لشدَّ ما يسرنى أن تكونوا موحدين ، لكنكم ياصديقى تقولون بإله آب ، وإله ابن ، وإله روح قدس ، وهذه ثلاثة بيقين ! فقاطعنى على عجل وهو يقول : إن الابن والروح القدس هما صفات العلم والحياة للإله الآب ، إنكم تعترفون معنا بأن الابن يسمَّى الكلمة ، والكلمة هى المعرفة والحكمة أى العلم ! وكلمة الروح تعنى الحياة بداهة ، فالله واحد ..

قلت : أما أن الله عالم حيّ فذاك حق ، لكن من قال إن صفة العلم تعنى بُنُوّةً لله سبحانه ؟ إن الابن عندكم ذات توصف بالألوهية ! فكيف يكون الوصف العَلمىّ ذاتا ؟ هل إذا كان شخص أسمر أو أحمر تحولت سمرته أو حمرته إلى شخص آخر يماثل الشخص نفسه ؟ قال : لايماثله ، بل هو هو ! قلت : هذا يعنى أن المسيح عندما قتل مصلوبا كان معناه أن الآب قتل أيضا ، بل قتل كذلك الروح القدس معه ، فالكل واحد كما تزعم ! . .

وأمر آخر يحتاج إلى إيضاح ، إن لله صفات القدرة والإرادة والرحمة والحكمة فهو بيقين منزه عن ضدها ، فلماذا لم تكن هذه الصفات أقانيم هى الأخرى ، وتكون الذات الأقدس مكونة من عدد أكبر من الأقانيم ؟ .

ياصديقى سأكمل لك بقية ماقيل لك فأنا به عليم ! لقد قيل لك : إن العلم الذى هو صفة يمكن أن ينفصل عن الذات . فيوضع مثلا فى كتاب مع بقائه صادرا عن الذات !! .

وأقول لك : إن ماتحتويه الكتب من معرفة هو دلالة على العلم الأصلي . فلو احترقت هذه الكتب فقد احترق كمٌّ من الورق والحبر ، وعلم المؤلف هو هو لا علاقة له بما حدث. وقد قيل لك ولغيرك ما يستحيل قبوله لأنه لعب بالألفاظ كلعب الحواة بالأشياء ..

إن الله واحد ، وماعداه مخلوق له عانٍ لجلاله ، مقهور تحت سلطانه ، سواء كان ملكا كجبريل روح القدس ، أو نبيا كموسى وعيسى ومحمد ، فلا تحاول أن تجعل أحدا ندًّا لله فإن الله ليس كمثله شيء ..

كلام له خبىء !

قال الرجل وهو حيران مضطرب : إنكم تحسبون بنوة عيسى لله نتيجة علاقة مادية أو وقاع جنسى ، وهذا مستحيل عندنا ، فإن الإله الابن تولّد عن الإله الآب كما يتولد الفكر عن العقل ! .

قلت له : إن للعقل وظائف يقوم بها من تذكر وتفكر وتنبه وتخيل الخ والعقل يقوم بهذه الوظائف دون أن يصفها أحد بأنها ولادة ، أو مخاض .

وإذا قيل إن الفكر يتولد عن العقل فالتعبير مجازى لا حقيقى كما تتوهم ، والفكر الصادر عن العقل أو الرنين الصادر عن الجرس أو الشعاع الصادر عن المصباح أعراض عابرة وليست ذوات قائمة كما تتوهم .

فكيف يكون الرنين جسما يتكلم ويتألم ؟ ثم كيف يكون ابنا متميزا وإلها معبودا ؟ هذا تخريف ! .

قال : أليس يصحّ فى التعبير العربى : لقد تحدثت مع عبقرية عظيمة ؟ قلت : المعنى صاحب عبقرية ، إنسان له ذكاء فائق ، أما الزعم بأن الذكاء يمشى على الأرض ويقوم ويقعد فهذه حماقة .. .

ذلك والزعم بأن مع الله إلها ثانيا وثالثا شىء لم يعرفه نوح ولا إبراهيم ولا موسى ، ولم يدر بخاطر صالح فى ثمود ولا شعيب فى مدين ، إن هذا الزعم اختراع من عندكم أنتم وحدكم قلدتم فيه التثليث المصرى والتثليث الهندى وسائر الوثنيات القديمة ...

قال : لا ، هناك فارق بين تثليثنا وتثاليثهم ! إنهم يرون الابن مخلوقا بعد الآب أما

نحن فنؤكد أن الابن قديم قدم الأب نفسه ، ومساوٍ له فى جوهره ...

قلت : هم جعلوا شركاءهم دون رب العالمين ، وأنتم جعلتم شركاءكم مساوين لرب العالمين فأى الفريقين شرٌّ من صاحبه ؟ قال : إنكم تفترون علينا فنحن موحدون ! . قلت : ياصديقى دُلَّنى على معنى التوحيد فى إيمان يقول : إن الابن إله قديم يساوى الإله الآب فى عنصره، ثم يجىء هذا الإله الثالث وهو مساوٍ للإلهين الآخرين فى قدمه وبقائه ، إله مع إله مع إله كيف تكون ذوات ثلاثة ذاتا واحدة ؟ . قال : ألم أقل لك إن الإله الثانى هو صفة العلم ، وأن الثالث هو صفة الحياة؟ .

قلت : عندما انفصلت صفة العلم عن الله ، وتحوَّلت جسدا فى بطن مريم هل بقى الله عالما ؟ قال : هى مفصولة وموصولة فى وقت واحد ! قلت : وتسمُّون مريم أم الإله ؟ قال نعم ! قلت : هذا كلام له خبىء.. معناه ليست لنا عقول.. ! .

ولكنكم لا تعقلون !

سمعت رئيسا لإحدى الكنائس الشرقية يهاجم الإسلام ، ويقول: إنه يتهم المسيحية بما ليس فيها ، وأن القرآن لا يعرف المسيحية . وما تقوم عليه من توحيد ! .

وكان الرجل ماهرا فى التلاعب بالألفاظ إلى حد مثير ، يقول : إن القرآن يحكم علينا بالكفر فى الآية الواردة «لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد ..» ونحن لم نقل إن الله ثالث ثلاثة ، بل نقول : إن الله هو الثلاثة جميعا .

ويقول : إن القرآن يصفنا بأننا عبدنا المسيح من دون الله ! وهذا خطأ فنحن لم نعبد من دون الله أحدا فإن المسيح هو الله نفسه ..! .

والقصة التى نسج الرجل فصولها مبنية كلها على الوثوب من لفظ إلى لفظ بطريقة بهلوانية يلتقى فيها المكر بالسذاجة .

فعيسى ـ عليه السلام ـ عندنا نحن المسلمين بشر خلقه الله بقدرته كما خلق الآلاف المؤلفة من الناس ، ومهمته على ظهر الأرض أن يعبد الله ، وأن يدعو غيره إلى عبادته ، والأمر كله لا يعدو قول القرآن الكريم «لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا » .

فلا هو إله ولا ابن إله ولا جزءٌ من إله ولا صفةٌ لإله ، إنه بشر له فضل الدعوة إلى توحيد الله مع غيره من سائر النبيين .

وكذلك جبريل كبير الملائكة وأمين الوحى ، إنه هو الآخر عبد لله الواحد ، وأشرف مايوصف به أنه مع إخوانه الملائكة « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » فلا هو إله ولا شبه إله ، إنه عبدٌ يرجو ويخاف .. وحسب .

والزعم بأن جبريل هو صفة الحياة ، وأن عيسى هو صفة العلم ، والانطلاق من هذين

إلى أن هاتين الصفتين دون سائر الكمالات الإلهية أمستا إلٓهين مساويين للإلٓه الأعظم ـ هذا الزعم لون من الخبال والإفك لا أساس له .

فعيسى وجبريل عبدان لله وليسا أوصافا لأحد ، وأنى يكون الوصف ذاتا ؟ أو الذات وصفا ؟ .

إن اللعب بالكلام مألوف بين أصحاب الفكاهة ! قيل لرّجل يبيع الحلوى لماذا اخترت هذه الحرفة ؟ قال كان لى صديق أحبه وكان لسانه ينقط عسلا ، فاخترت بيع الحلوى من لسانه ! وقال آخر : اشتغلت أربعين يوما من شهر كذا . فقيل له : الشهر ثلاثون يوما فقط ! فقال استعرت عشرة أيام من السنة القمرية ! .

ماذا تصنع لرجل يقول : ربنا يسوع المسيح ، فإذا قلت له : ربنا الله رب العالمين ، قال لك : لا تناقض هذا وذاك شيء واحد ! فإذا قلت له : هل عيسى عبد الله ؟ قال لك : بل هو إله مثله . هل هما إلٓهان ؟ بل ثلاثة ، وهم جميعا واحد ... ولكنكم لا تعقلون ! ! .

لما كذبنا على الفطرة

يعلم المؤرخون أن محمدا عليه الصلاة والسلام تزوَّج وهو شاب فى الخامسة والعشرين من سيدة تكبره بخمسة عشر عاما ، وأنه بقى معها وحدها سبعا وعشرين سنة . كان خلالها فى شرخ الشباب . وكانت فى خريف العمر..

ويعلمون أنه قبيل الهجرة ، وقبل الوفاة بنحو عشر سنين تزوج من بضع سيدات ، أحاطت بهن ملابسات سياسية واجتماعية تجعل البناء بهن قضية إنسانية أكثر من قضية إرواء لرغبة جنسية ، ولم تكن بينهن إلا بكر واحدة هى ابنة صاحبه أبى بكر .

واتفقت كلمة المؤرخين على أن حياة النبىّ الخاصة قامت على التقشف والإقلال ، فما تشبّع من طعام ، ولا خالطت سيرة المترفين بيته قط ، كأنما كان وحده الذى يتحمل أعباء الحصار المضروب على الدعوة الإسلامية ، والمطاردة المستمرة للداخلين فيها ..

وقد يقول البعض : هذا كله لا ينفى ميوله الجنسية ، على نحو ما ! ونقول : ليكن ، فما فى الفحولة عيب ! ومن الذى قال : إن العجز الجنسى منقبة جليلة ؟ وإذا كان قد أحب المرأة ، وعدَّد الزوجات ، فهل تصرف إلا فى نطاق الحلال المأنوس المعروف فى كل الديانات السماوية والأرضية ؟ أين فى الكتاب المقدس ــ كما يضعون ما لديهم ــ ما يفيد منع التعدد؟ لقد مارسه الأنبياء ومن دونهم ، وبلغت نساء سليمان ألفا. فهل النسوة التقيات المترفعات اللائى صحبن محمدا على السهر والصوم هى نقطة الضعف فى سيرته المتألقة ، وجهاده الموصول ؟ .

قد يقول بعض آخر : كان يستطيع الرهبانية ! والتسامى عن الشهوة الجنسية ! ونقول : إن الشهوة الجنسية ليست رجسا من عمل الشيطان يوم تكون لقاء باسم الله ، وامتدادا للوجود البشرى ، ومحضنا لأجيال تعرف ربها ، ونماء لمشاعر الحنان والرحمة والتعاون بين رجل وامرأة ! ! .

ماذا حدث عندما كذبنا على الفطرة وجعلنا الرهبانية دينا؟ الذى حدث يندى له الجبين وتسودّ له الوجوه! ولا يزال إلى يوم الناس هذا مثار اشمئزاز.. ولن ترقى الإنسانية أبدا إلا إذا ألغت نظام الرهبنة، وفهمت منطق الإسلام.

شهادات نسجلها كارهين

هاك شيئاً مما كتبه «ويل ديورانت» عن أخلاق الرهبان فى كتابه الضخم «قصة الحضارة» نسجله كارهين ، ونهديه إلى من يهاجمون الإسلام من باباوات وكرادلة.

فها هو ذا «بترارك» نفسه الذى غمر قلبه الإخلاص لدينه والوفاء لعقيدته ومبادئ شريعته ، يندد أكثر من مرة بأخلاق رجال الدين المقيمين فى «أفنيون» والحياة الخليعة التى كانوا يعيشونها . ونقرأ عنها فى روايات «بوكاتشيو» . . إذ يتحدث عما فى حياة رجال الدين من دعارة وقذارة ومن انغماس فى الملذات ، طبيعية كانت أو غير طبيعية .. وتكتفى الدلائل الواردة فى مصادرهم بسرد ما تستقذره الطبيعة الإنسانية من طباعهم ، فلقد وصف «ماستشيو» الرهبان والإخوان بأنهم «خدم الشيطان» ، وأنهم منغمسون فى الفسق واللواط ، والشره وبيع الوظائف الدينية ، والخروج على الدين ، ويقرّ بأنه وجد رجال الجيش أرقى خلقًا من رجال الدين .

إن سوء حال رجال الدين وقبوعهم فى مرافئ الشطط ، استثار غضب كثير من رجالهم .. فكان «ديكاچيو» يفرغ كل ما يعرفه من ألفاظ السباب ، فى التشنيع على فساد أخلاق الرهبان والقسيسين ، ونفاقهم ، وشرههم ، وجهلهم ، وغطرستهم ، .. وكان للراهبات نصيب فى هذا العوج ـ حيث كانت أديرة الرجال والنساء متقاربة قرباً يسمح لمن فيها بالاشتراك من حين إلى حين فى فراش واحد .. ويتحدث «أريتينو» عن راهبات البندقية حديثا لا تطاوع الإنسان نفسه أن ينطق به .

و«جو تشياردينى» الذى يتسم بالرزانة والاعتدال ينذهل حين يصادفه وصف رومة التى كان يقول عنها : «أما بلاط رومة فإن المرء لايستطيع أن يصفه بما يستحق من القسوة ، فهو العار الذى لا ينمحى أبد الدهر ، وهى مضرب المثل فى كل ما هو خسيس مخجل فى العالم» .

إن هٰذه الشهادات قد تخالطها المبالغة وقلة النزاهة ، ولكن شهد شاهد من أهلها ، القديسة كترين السينائية إذ تقول : «إنك أينما وليت وجهك ــ سواء نحو القساوسة أو الأساقفة أو غيرهم من رجال الدين ، أو الطوائف الدينية المختلفة أو الأحبار من الطبقات الدنيا أو العليا ، سواء كانوا صغاراً فى السن أو كباراً ــ لم تر إلا شرا ورذيلة ، تزكم أنفك رائحة الخطايا الآدمية البشعة ، إنهم كلهم ضيقو العقل ، شَرِهُون ، بخلاء . تخلوا عن رعاية الأرواح .. اتخذوا بطونهم إله لهم ، يأكلون ويشربون فى الولائم الصاخبة ، حيث يتمرغون فى الأقذار ويقضون حياتهم فى الفسق والفجور ... ويطعمون أبناءهم من مال الفقراء ... ويفرون من الخدمات الدينية فرارهم من السجون» ، وليس هٰذا حال القساوسة فى رومة وحدها ، بل لا ينجو من أحبولة الرذيلة .. الكثير من القساوسة فى كل مدينة من مدن شبه الجزيرة الإيطالية ، فلقد كانت البندقية أسوأ حالا من رومة .

نحمده على نعمة التوحيد

ذكر الدكتور ثروت عكاشة فى كتابه « تاريخ الفن » الذى أخرجته له « اليونسكو » أخيرا أن المصريين القدماء عاشوا موصولين بعبادة آلهتهم لا سيما الإلهة «ايزيس» التى جاوزت عبادتها مصر إلى غيرها من أقطار أوربا ، وكان لها شأن فى رومة نفسها ، كما أنها بلغت انجلترا وحوض نهر الراين « ألمانيا » وغيرها .

ويظهر أن بعض الأوثان له حظ واسع ، فإن «هبل» الذى عرفه عرب الجزيرة هو «أوبللو» الذى عرفه الإغريق ، وعبده هؤلاء وأولئك على سواء .

أليس غريبا أن يهون بعض العباقرة ويكرّم بعض الأحجار والأخشاب ؟ .

لأدع ذلك ولأعد إلى تاريخنا القديم ، لقد دخلت النصرانية مصر فى ظروف غامضة ، ويقال : إن مرقس أول من دعا إليها فى الإسكندرية ، ثم أخذت دائرتها تنداح ! .

يقول الدكتور ثروت : غير أن عبادة الآلهة الأولى استمرت فى أماكن متفرقة برغم اضهاد المسيحيين لكل من بقى عليها . وقد أخذ هذا الاضطهاد مظهر البطش حتى راح المسيحيون يلاحقون بغير رحمة كل من يمتلك قراطيس البردى التى نقشت عليها صور الآلهة ، كما كانوا يعبثون برسومها فى المعابد ، ويطلقون على الآلهة القديمة اسم الشياطين .

وفى الإسكندرية ظهر مذهب «أريوس» الذى يفرد الله بالألوهية ويرى أن عيسى مخلوق لا خالق ، ويرفض أن تكون طبيعته من طبيعة الله ، كما يزعم المثلثون ! .

أقول : وقد تعاون المصريون والرومانيون ـ على ما بينهما ـ حتى هزموا مذهب أريوس وشتتوا أتباعه ثم اختلفوا اختلافا عميقا فى تحديد العلاقة بين أفراد هذا الثالوث ، وليس يعنينا نحن المسلمين تصوير مواقف الفريقين لأن كتابنا ينادى هؤلاء وأولئك «يا أهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم ولاتقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله

وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلاً » إنما الذى يعنينا أن المتناقضات التى تلاقت فى صلب العقيدة جففت آثارها فى النفوس حتى ظهر فى انجلترا وغيرها من يقول : إن الله مات .. !! .

والإله الذى مات هو إله الأقانيم ، وليس رب العالمين ، فهو الحى الذى لا يموت .. ! .

والمراقب من بعد يرى أن النصارى يتجهون أولا إلى يسوع « الأقنوم الثانى » ! أما « الأقنوم الأول » فإن الاتجاه إليه محدود ! وأما روح القدس فإنه مهمل لا يكاد يذكر إلا تكملة للعدد ..

ونحمد الله على نعمة التوحيد الحق ، والعبودية الخالصة .

لماذا يسكت علماء المسلمين ؟

هناك كافرون بالإسلام لا يرون ضرورة لإعلان كفرهم ! حسبهم أن صلتهم مقطوعة بكتابه وسنته ، وأن إحساسهم بليدٌ بهزائمه وانتصاراته ، وأن سلوكهم بعيد عن صراطه ووجهته .

لم هذا الإعلان ؟ إن لغة الحال أجدى من لغة المقال ... فليسعهم الصمت ، ويمكن ضرب الإسلام دون ضجة ! لكن هؤلاء الكفرة يواجهون أحيانا ما يرغمهم على كشف المخبوء ، وذلك حين يكون المطلوب منهم هدم ركن ظاهر من أركان الإسلام أو إماتة شعيرة من شعائره البارزة ...

كنت أستمع إلى إحدى الإذاعات العالمية ففوجئت بوزير للتربية والتعليم يقرر ـ لمناسبة افتتاح السنة الدراسية الجديدة ـ رفض تحويل بعض الغرف إلى مساجد تؤدى فيها الصلوات ! إن اتجاه الطلاب لإقام الصلاة حركة رجعية يجب صدّها ، وكلمات الأذان التى تطهر الجو وتطارد الشيطان وتذكر الشباب بربهم لا ينبغى أن تسمع ! .

كيف تكون التربية فى وزارة التربية إذا كانت الصلوات ممنوعة ؟.

ولمن يكون الهتاف إذا منع الهتاف لله ؟ .

وشىء آخر قرره الوزير الهمام ، منع الفتيات من ارتداء الملابس الطويلة ! كنت أظنه سيمنع الفتيات من ارتداء « البنطلونات » الضيقة البالغة الضيق ، أو القصيرة الفاضحة القصر ! لكنه ـ وهو المسئول عن التربية ـ يريد تربية من نوع آخر ..

إننى واثق من أن هذا الوزير ما صلى لله ركعة ، ولاصان له حرمة ، ولا فكر أنه سيلقاه يوما ، فما معنى أن يتولى إنشاء أجيال برغمها ـ وهى كارهة ـ على الكفر والفسوق والعصيان ؟ .

إن اللغة العربية تفقد مكانتها فى برامج الدراسة لتحل محلها اللغة الفرنسية ، والرباط القومى أخذ ينحلّ ليحل محلّه الولاء للغرب ، وهناك صيحة قذرة منكرة تقول : إن باريس أقرب إلينا من مكة !!! .

إن العرب الذين يكفرون بالإسلام أخبث أهل الأرض وأجدرهم بالويلات المضاعفة ، يستوى فى ذلك فعلة الإثم والساكتون عليه ! لقد تحرك أولو الغيرة وصاحوا بالقيادة المجنونة أن ترعوى ، فما سرّ الصمت الذى لاذ به الكثيرون فى مواجهة هذا المنكر الزاحف .. ؟ .

إن هناك هيئات عالمية لحقوق الإنسان رق قلبها لما وقع من محاكمات جائرة للإسلاميين فى تونس ، وطلبت توفير جوّ من العدالة للمتهمين ، والسؤال الذى نوجهه لعلماء الدين فى المشرق والمغرب : ما أسكتكم ؟ أليس فى منع الصلوات ووجوب كشف العورات ما يثير غضبكم لله إن كنتم به مؤمنين .. !! .

آفة إرضاء الناس

لا بأس أن تكون وسيم الطلعة جميل الثياب ! «من حرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق» ؟ المهم أن يكون الجمال فى ظاهرك وباطنك سواء ! أما أن يكون الشكل حسنا والموضوع رديئا فذلك تناقض ذميم .

وقد لاحظ أحد الشعراء أن واقع الناس يستحق المؤاخذة ، فهم يهتمون بكمال المظهر وحده ويتعهدون ملابسهم وهيئاتهم تعهدا تاما ، أما ما وراء ذلك فلا اكتراث به ! قال:

أرى حُلَلاً تصان على أناس وأخلاقاً تُهان ولا تصان
يقولون : الزمان به فساد وهم فسدوا وما فسد الزمان !

فى المجتمعات المريضة يقوم التعامل بين الناس على تصحيح الشكل وتزيين العنوان ، أما الحقيقة المخبوءة داخل القلب واللب فأمر ثانوىّ. وهم يقولون: «كلْ مايعجبك والبس مايعجب الناس» فطلب إعجاب الناس أساس ملحوظ فى مسالك شتى.. وقد نشأ عن ذلك حرص كبير على إرضاء الآخرين ، والنجاة من نقدهم ، ثم نما هذا الإحساس حتى أصبح إرضاء الناس هدفا مقصودا ، وأصبح الرياء عملة متداولة . هذا يطلب إعجاب ذاك وذاك يطلب إعجاب هذا ، وفقدت الفضائل أسسها النفسية المكينة ...

والفضيلة ـ كما صورها القرآن ـ امتداد لأصل نفسىّ قائم ، وتطلّع إلى وجه الله أولا وآخرا .. تدبر قوله تعالى «ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة .. » أى أن الخير لا يكون خيرا إلا إذا قارنه انبعاث داخلىّ قوىّ ثابت ، أما مجرد التجاوب مع الناس والانسجام مع الوضع السائد فلا قيمة له..

هناك من يعرف الحق معرفة جيدة ، ولكنه يتركه لأن التقاليد السائدة ضده يقول وهو مهزوم : ماذا أصنع ؟ ماذا يقول الناس عنى ؟ .

إنه مسكين يعبد الناس ويهمل الحق انقياداً لهواهم ، وجمهرة الأمم المتخلفة تعيش بهذا المنطق ، كل امرئ يحاول إرضاء الآخرين ، والعادات الحمقاء تفرض نفسها بقوة على كل شيء ، أما الاستمساك بالفكر الزكيّ والخلق الرضيّ فلا مكان له مع اتجاه الدهماء وسيادة الرياء ! .

الديمقراطية فى بلادنا

قضية الاقتباس والمحاكاة تحتاج إلى وقفة ، فإن نقل الشكل لا يعنى أبدا نقل الموضوع والرجل لا يتحول إلى مقاتل شجاع عندما يرتدى لباس ضابط جيش ! مهما كانت صرامة ملامحه ووسامة بزته ! .

وقد نظرت فى أحوال أمتنا وهى تقلد الغرب المنتصر فوجدتها فى أحسن الظروف تنقل البناء ولا تنقل قاعدته ، فإذا الهيكل المنقول يظل أياما قلائل يسر الناظرين ! فإذا هزته الأحداثَ تحوَّل على عجل إلى أنقاض ..

تابعت بإعجاب كيف انهزم حزب رئيس الولايات المتحدة فى الانتخابات التكميلية وفقد الكثرة التى كان يتمتع بها فى مجلس الشيوخ ..

وتابعت ما أشبه ذلك فى انتخابات اليونان ، وما سبق هذه وتلك من انتصار أحزاب اليمين فى فرنسا على الاشتراكية التى يمثلها رئيس الجمهورية ! ! .

وأحسست غُصَّة وأنا أرمق ما يوصف بالديمقراطية فى البلاد الإسلامية ! إننا نقلنا نظام الانتخابات ، وقيدنا أسماء الذين ينتخبون ، وارتقينا أكثر وأكثر فقيدنا أسماء اللائى ينتخبن ! ونظر العالم إلينا ونحن نطبق الديمقراطية الغربية ، ولم يحاول أن يكتم ضحكاته الساخرة ، فإن ما كان يقع فوق كل محاولة للكتمان ! كان ملاك السلطة حُواة مهرة يجعلون صناديق الاقتراع تتحول بسحر ساحر إلى تأييد ساحق يشترك فى صنعه الإنس والجن والأحياء والأموات ! .

وينتهى التنافس الوهمى إلى نصر أشرف منه الهزيمة ، وإلى حكم شعبى أشرف منه الحكم الفردىّ الذى زهد فى التزوير والعبث ..

إن هؤلاء نقلوا عن أوربا شكل الديمقراطية ولم ينقلوا قاعدتها الخلقية التى نهضت عليها ، وجوها الثقافى الذى ازدهرت فيه .. ! .

ثم رئى أن هناك من صور الديمقراطية ما هو أجدر بالاقتباس وما ثبت نجاحه فى العالم الشيوعى نجاحا يغرى بنقله إلى العالم الإسلامى ! ذلك أن يرشح رجل وحده للحكم ، وينتظر الناس النتيجة بنفاد صبر ، حصان واحد يجرى فى ميدان السباق كما قال أحد الكتاب اليوغسلاف ! .

قال رواة الفكاهة : ورئى الحصان الفذ واجما قلقا قبل أن تظهر النتيجة ، فسئل : ما يقلقك ! قال : أخشى أن يعاد الانتخاب ! ! .

يعاد بينك وبين من يا أخ العرب ! .

من آفـات الوثنية السياسية

حَسَدْتُ شعوب أوربا الغربية وأمريكا الشمالية واستراليا وغيرها على ما تستمتع به من حرية القول ، والقدرة المحصَّنة على نقد الحكام وكشف أخطائهم ومحاسبتهم عليها حسابا عسيرا ..

الحاكم هناك ترمقه ألف عين ، وتسرع إلى مساءلته على كل تصرّف يحتاج إلى شرح ، وقد تابعت المحاكمة الإعلامية التى تعرض لها رئيس الولايات المتحدة ، وهى أولى دول العالم ، ورئيسها أعظم الرؤساء جاها وسلطانا ، فرأيت الرجل الشامخ يوضع فى السّفود ، ويُشوى على نار من النقد اللاذع القاسى ، ويحاول الاعتذار والتنصّل دون جدوى .

وتذكرت بيتىْ الرافعى وهو يصف ما يفعل بخصمه :

وللسّفـود نـار لو تلظّـى بجاحمها حديدا ظُن شحما !!
ويشوى الصخر يتركه رمادا فكيف وقد رميتك فيه لحما ؟

وليس ما وقع من الرأى العام الأميركى بدعا ! إن ذلك يحدث فى انجلترا وفرنسا وغيرهما .

بيد أن هذه الحريات السياسية الجليلة للاستهلاك المحلّى فى أقطار الغرب ، ولا يسمح بتصديرها إلى بلاد أخرى ! أو بتعبير أصح لا تفكر أقطار متخلفة كثيرة فى استيرادها لتنتفع بها ، حسبها أن تنتفع بسلع اللذة ومواد الترف وثقافة الإلحاد والإباحة ..

إن نظرة البلاد الراقية إلى حكامها هى نظرة الناس فى صدر الإسلام إلى الخلافة الراشدة ! يقول الخليفة : إن أحسنت فأعينونى ، وإن سأت فقومونى !! .

حتى الدول الشيوعية التى يشيع فيها الاستبداد السياسى ، قلما توضع الأمور فيها إلا بيد أعتى الرجال وأصلبهم عودا وأشدهم مراسا ..

أما البلاد المتخلفة فإن كيمياء الحظوظ هى التى تصنع القادة ، وكيمياء الحظوظ هى التى قال فيها ابن الرومى :

إن للحظ كيمياء إذا ما مسّ كلبا أحاله إنسانا !
يرفع الله ما يشاء كما شاء متى شاء كائنا ما كانا ..!!

وقد ينهزم القائد الذى صنعته الحظوظ هزيمة تسود لها وجوه وتخزى بها شعوب ويضيع بها حاضر ومستقبل ! ومع ذلك فإن الوثنية السياسية تمدحه ولا تلومه ! وتستبقيه ولا تقصيه ، وتزوّر له تاريخا وفلسفة بدل أن تصمه بالعار وتكويه بالنار.

ما أغرب حياة الأمم المتخلفة وأسوأ أحوالها ! .

الـدم الذى لا غاضب له

أكتب هذه السطور وجيران المسجد الأقصى مكروبون محروبون ، يطاردون فى الطرق ، وتلقى عليهم القنابل الحارقة فى البيوت ، ويتطلعون إلى الأمان فلا يجدونه ! والسبب أن طالبا يهوديا قتل ، ولابد من الأخذ بثأره على أوسع نطاق ..

قلت : إن شابا عربيا خرج من بيته فى الأسبوع السابق ولم يعد ، وتبين أن الجيش اليهودىَّ قتله لأنه كان يسير فى منطقة محظورة ـ كما زعموا ـ فلماذا ذهب دمه رخيصا لا غاضب له ؟ ويبقى دم اليهودىّ حارًّا تزلزل له الأرض ، وتنطلق له الرجوم ؟ .

ولم أنتظر إجابة لأنى أعرف ما يقال ! ، إن العرب هم الذين أهدروا دماءهم وأضاعوا حقوقهم وجرأوا الذئاب على نهشهم .

إن تفريطهم فى الإسلام ردَّهم أحزابا متشاكسة متطاحنة لا يلوى أحد على أحد ، فلا عجب إذا طمع فيهم غثاء الأرض ، ولن أعجب إذا قيل : داهمتهم الهوامّ والحشرات ...

إن اليهودىّ يجىء من بولندا أو روسيا أو إيران أو اليمن فينسى وطنه القديم ويبتُّ جبله . بل يذكره كأنه فترة مؤسفة فى حياته ، ويقبل على عهد جديد من إخاء العقيدة ونسب التوراة والتلمود ، والأمل فى إقامة هيكل الرب على أنقاض المسجد الأقصى ، وسيطرة بنى إسرائيل على زمام العالم أجمع ...

أما المسلمون فلهم شأن آخر، إنهم قدَّموا قرابة الدم على قرابة الدين ، ونداء المصلحة على نداء العقيدة ، وأطماع ذوى السلطة على حقوق الأمة الكبرى ، وأينما رميت بصرك لا ترى إلا الفرقة والخصام ...

فكيف نلوم غيرنا على ماأوقعناه بأنفسنا؟ إننى قرأت حديثا للبيهقى جاء فيه : « ليأتينّ على

الناس زمان، ولقيد سوط ـ أو قال ـ قوس الرجل حيث يرى منه بيت المقدس خير له أو أحب من الدنيا جميعا » ومعنى الحديث أن المسلمين سيحال بينهم وبين المسجد الأقصى حتى يتمنى الرجل لو كان على مسافة ذراع من المسجد. ولقد وقع ذلك من ألف عام وانتزع الصليبيون المسجد من أهله وظل بأيديهم تسعين سنة ، ثم استعاده صلاح الدين على جسر من الأشلاء والدماء.

ثم تكررت أسباب فقداننا للمسجد ، فوضع اليهود أيديهم عليه ، وأمسوا أصحاب الكلمة المسموعة فى مساحته ، وإذا مضت الأمور على ما يهوون خربوه ، وطردوا أهله ، وبنوا فوق خرائبه هيكلهم ! .

ترى : أنظل على حالنا أم نتغير ليُغيِّر الله مابنا ؟ إن الُّلجَّةَ التى تحمل العرب الآن ساسة وشعوبا تقودهم إلى الغرق ، ولا عاصم من أمر الله إلا من رحم.

فهل يرتفع شعار الإسلام وترفرف رايته ، أم نبقى تحت الرايات الأخرى لنبلغ القاع ؟ .

الانتفاضة الإسلامية فى فلسطين

من خصائص الإسلام أنه كلما حصدت الهزائم والآلام جيلا من أبنائه نبت جيل آخر أقدر على المقاومة وأصبر على الجلاد وأبصر بطرق النجاح .. ولعل تلك الخصيصة سبب بقائه ونمائه على كثرة ما لاقى من محن وواجه من متاعب ..

فى عام ١٩٤٨ سقط نصف فلسطين فى أيدى اليهود إثر هزائم ومؤامرات شاركت فيها هيئة الأمم وقوى الاستعمار العالمى . ووجد عرب فلسطين أنفسهم فى سجن كبير لا يستطيعون الحراك إلا داخل مصيدته ، وأحس المسلمون الأحرار أن الدنيا ضاقت بهم وأن الآفاق اسودت أمامهم ..

بيد أن الإيمان العميق لا ينهزم مهما كان الحاضر كئيبا ، لقد شرع فى هدوء يتحرك ليثبت وجوده ، وليتعرض بصبره وأمله إلى رَوْح الله ..

كتبت صحيفة «نيويورك تايمز» تحت عنوان الاتجاهات الإسلامية بين عرب المناطق المحتلة تتحول إلى ظاهرة سياسية» قالت :

فى قرية أم الفحم العربية الواقعة على مسافة ساعة شمالى تل أبيب أقام متشددون مسلمون مواقف للسيارت وزودوها بأماكن انتظار خصص بعضها للنساء والآخر للرجال ..

وعلى الطريق الخارجى للمدينة ، وعلى مسافة بضعة أميال منها توقف «مطعم يونس» عن تقديم الخمور وأنواع البيرة لرواده ، وكان ذلك المطعم المكان المفضل للزوار اليهود ! وحدث ذلك الامتناع انسجاما مع موجة إسلامية متنامية شملت جميع القرى العربية المجاورة ..

بعد ذلك انسحب عدد من الرياضيين العرب من الدورى اليهودى ، وشكلوا رابطة لكرة القدم تضم ٣٨ ناديا ، وتنتظم فرق القرى العربية فى الأرض المحتلة :

قالت الصحيفة الأمريكية : «وفى أثناء اللعب، وعندما يقرع الآذان صوت المؤذن

لأداء الصلاة يتوقف الجميع عن اللعب ، ويصطفّون أمام القبلة ويقيمون الصلاة فى خشوع ، ولا تستأنف المباراة إلا بعد انتهاء الصلاة ..

ومن القرى العربية الرازحة تحت الاحتلال فى «الجليل» إلى الجامعات الفلسطينية فى الضفة الغربية ، إلى مخيمات اللاجئين المتناثرة بين الشمال وقطاع غزة تسود روح الانتفاضة الإسلامية ، ويسرى روح جديد من الانتماء الإسلامى والاعتزاز بالنفس والتراث ، والعودة إلى الله بعد ما وقع من أحداث جسام .

إن الكفاح الفلسطينى بدأ إسلاميا خالصا تمثله عمامة محمد أمين الحسينى مفتى فلسطين، ومع ضراوة القوى الشريرة، وتكاتف الشرق والغرب ضده فإن اليهود لم يظفروا بشىء ، وربما نالوا مواطئ أقدام لهم فى عدة أماكن ، إلا أنهم ما أحسوا معها استقرارا ، ولا خلص لهم كيان ، لأن المجاهدين المسلمين ما وهنوا ولا استكانوا .

فلما أبعد الإسلام ضاع كل شىء ! ولا أمل إلا فى العودة إليه .

صحوة المسلمين فى تركيا

قلبى مع الشعب التركى الذى يحنّ إلى دينه ، ويريد الحياة فى ظلاله ! الشعب الذى غلبه البكاء وهو يستمع إلى الأذان ينطلق باللغة العربية من المساجد بعد أن خرست المآذن دهرا وحرم عليها دعاء المؤمنين إلى الصلاة بلغة الوحى ! .

إن الأتراك يحلمون بعودة جادة إلى دينهم ، أى إلى مجدهم الباذخ وعزهم القديم ، ولكن الشعب المؤمن يكابد أهوالا جمة وهو يشق طريقه إلى تلك الغاية ! .

وأعداء الإسلام يرقبون هذه الصحوة الإسلامية بحذر وضيق ويضعون العوائق فى وجهها ، وتقول جامعة «بافلو» الأمريكية : إن هذه الصحوة موجهة ضد الثورة الثقافية التى قام بها كمال أتاتورك .

وهى بهذا الاتهام تستحث الدولة على ضرب الشعب ، ومنعه من العودة إلى دينه ! .

وقد قرأت نبأ ندوة أقامتها الجامعة الأمريكية المذكورة عن الاتجاهات الجديدة فى الشرق الأوسط المعاصر ، وعقدت جلسة خاصة بالإسلام فى تركيا تحدث فيها الدكتور «إدوارد فيلب» عن الأحوال السائدة فى هذا القطر الإسلامى التى تهب عليه تيارات الفتنة من كل ناحية ..

استوقفنى أن الرجل اعترف بفشل كل محاولات التكفير والإضلال و«العلمنة» و«التغريب» التى تتعرض لها الأمة التركية من ستين عاما ! وبقاء الجماهير متشبثة بعقائدها وعباداتها وتقاليدها الإسلامية وشعائرها وشرائعها ، لا تزيدها الفتن المتلاحقة إلا يقينا وصلابة ..

ورأى الدكتور المحاضر أن للصحوة الإسلامية المحذورة مظاهر ، منها تشييد آلاف المساجد لإقام الصلاة ، ولتلقين النشء الجديد دروس القرآن الكريم ، وقد لوحظ ! إقبال شديد على حلقات التحفيظ .

ومنها ارتداء الطالبات لغطاء الرأس ، وإصرارهن على هذا الزىّ الإسلامى برغم القرار الذى أصدرته إدارات ثمان وعشرين جامعة ومعهدا عاليا بتحريم هذا الزىّ ! .

والقرار المذكور كما يمنع ملابس الحجاب ويطارد أصحابها يمنع من دخول الجامعات الطلاب الذين يوفرون لحاهم ...

والغريب أن المحكمة العليا أمضت هذا القرار حماية للنظام العام . ! ومع هذا كله فدائرة الإسلام تنداح ، والجماهير تقبل عليه وتهتف به ، وحصون الإلحاد الكمالى تتداعى حصنا بعد حصن ، ودسائس الاستعمار العالمى تفتضح يوما بعد يوم ، إن الرغوة التى غطت سطح الموج تتلاشى مؤكدة قول الحق :

« فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

آلام المسلمين

لعل المسلمين فى هذا العصر هم أكثر الناس آلاماً ، ولعل أرضهم هى التى يستنسر بها البغاث ! إنهم يدافعون عن قضاياهم بالصياح ، ويردون السلاح الفاتك باليد العزلاء .

ذاك يوم تصحّ فى صفوفهم حركة ، ويرفضون قبول الدنيّة ، وإلا فالواقع يفرض نفسه وما أشأم هذا الواقع وأمرّ مذاقه ..

من أجل ذلك أحسست دهشة عندما وصف المسلمون بأنهم إرهابيون ، وعندما نشرت جريدة «الموند» الفرنسية تحقيقاً أبرزت فيه أن ٥٠٪ ممن أبدوا آراءهم ذكروا أن الإسلام من وراء العنف الذى يشكو العالم منه ! .

إن حرب إبادة تتم فى أفغانستان تزهق فيها أرواح المسلمين دونما ضجة تذكر ، وحرباً أخرىٰ تقع فى فلسطين رميت فيها ألوف الأسر العربية فى العراء ، واحتلت مدنها وقراها أسر يهودية قادمة من شرق أوربا وغربها ، والقانون الدولى المحترم جعل المالك الطريد إرهابيا لاحق له ، وجعل اللص الغالب رب بيت محترماً ! .

ومن أيّام أصدرت الكنيسة الإصلاحية فى جنوب إفريقية بياناً صرحت فيه بأن الإسلام عقيدة زائفة ! فلما غضب المسلمون وتظاهروا رافضين هذا الوصف الحقير ، ضربوا بالسياط ، وألقيت عليهم القنابل المسيلة للدموع ! .

وتقاسم المسلمون والملونون لذع الإهانة والازدراء والتفرقة ، والعالم كله يسمع ويرىٰ .

أما مسلمو الفلبين وبلغاريا وألبانيا فإن الويلات تحلّ بهم فى سكون ، ولا يكترث بهم أحد . بل إن الإسلام فى أرضه يتنفس بصعوبة ، ولا يؤذن له أن يبسط تعاليمه فى ساحات أبعد عنها عمداً .. ! .

ومع ذلك فالمسلمون إرهابيون ! وهم مصدر العنف الذى يفزع العالم منه ...

مطلوب منا أن نلعق جراحنا ونبتسم للجلادين الذين يلهبون ظهورنا ! .

مطلوب منا أن نعتبر حقنا باطلاً وباطل غيرنا حقا ! مطلوب منا أن نكون كما قال اا

إذا مرضنا أتيناكم نعودكمو ، وتخطئون فنأتيكم ونعذ

من الملوم ؟ المجرمون الذين استباحوا حرماتنا دون قلق ؟ أم المستباحون الذين أ
كراماتهم ، وديست شعائرهم وشرائعهم فلم يفزعوا إلى المقاومة المستميتة ؟.

إننا فى عالم قلبت فيه الحقائق وخوّن فيه الأمين وائتمن الخائن وليت المسلمين فيه
ما يخيف المعتدى ، ويردع الكذوب !!.

منطق المجرمين واحد

تزوير العناوين ، أو تحريف المفاهيم ، أسلوب شائع فى محاربة الحق ومطاردة أهله مع مجافاته الشديدة للواقع المقرر المأنوس ، فالرجل يدافع عن أرضه وعرضه وتاريخه وتراثه يوصف بأنه إرهابى ! والطارئ المغير الذى يغتصب التراب الوطنى ويقيم فوقه سلطة أجنبية يوصف بأنه صاحب حق .. ! .

وقد كنت أحسب هذا البلاء بدعة العصر الحديث الذى بلغ الغاية فى تشويه الحقائق ! ولكنى بعد تأمل قريب وجدت منطق المجرمين واحدا وإن تطاولت القرون ! لقد حكى القرآن الكريم مقالة فرعون لما استباح دم موسى وقرر قتله « وقال فرعون : ذرونى أقتل موسى وليدع ربَّه ، إنى أخاف أن يبدّل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد » !! .

فرعون الغيور على الدين المحب للصلاح والإصلاح يخاف من أن يفسد موسى فى الأرض وينشر فيها الفوضى ! أى أن موسى إرهابى لايستحق البقاء ! .

المنطق نفسه الذى يعلنه « المستعمرون البيض » فى جنوب إفريقية للخلاص من السود ، والذى يلوذ به الصليبيون فى الفلبين للقضاء على المسلمين فى الجنوب. هؤلاء المسلمون الذين كانوا إلى قرن مضى جمهرة السكان ، وأصحاب الأرض الخصبة هنا وهناك ، فمازال الغزو الطارئ يلحّ عليهم ويدحرجهم قبيلا بعد قبيل ، حتى ألجئوا إلى مساحة من الأرض تضيق بدينهم ودنياهم على سواء ! .

وبين الحين والحين أسمع مصارع « مسلمين أصوليين » فأستغرب العنوان وأبحث عن الحقيقة .. إن القتلى المضطهدين لايطلبون أكثر من العيش داخل إطار الإسلام ، بيد أن هذا الإطار مرفوض والمعالنة به لون من الإرهاب ! .

اقرأ معى هذا الخبر الذى ختمت به صحيفة «نيويورك تايمز» مقالا لها عن الحالة الإسلامية فى إسرائيل ، قالت الصحيفة «فى الضفة الغربية انتهت مسابقة أجراها طلاب الدراسات الإسلامية فى جامعة «بيرزيت» واشترك فيها ٤٠٠ طالب بصياح انطلق من كل حنجرة بحماس شديد يقول : أنا مسلم ، وعربى ، وفلسطينى ! » .

وعلقت الصحيفة على ما حدث قائلة : كان هناك طالب علمانى يراقب هذا المشهد عن كثب ويصفه بأنه نوع من التخويف ! .

الانتماء الإسلامى نوع من الإرهاب ، أما أى انتماء آخر فلا حرج ولا ضير ! .

من يخدم عقيدة التوحيد

قلت لرجل عاش طويلا فى الاتحاد السوفييتى ، وقضى زمانا مماثلا فى الولايات المتحدة : إنك خبرت الحياة الداخلية فى الدولتين العظميين، وعرفت طباع القوم الفردية والاجتماعية فحدثنا عنهما ، وتجاوز السلبيات التى تعرفها !.

قال : ما تعنى بالسلبيات ؟ قلت : لا تحدثنا عن شيوع الخمر ، وإدمان الجماهير لها ، فهم يعاقرونها ويلعنونها ! ولاتحدثنا عن انطلاق الغرائز الحيوانية ، فهم يرون ذلك نداء طبيعيا لامعنى لوضع العراقيل أمامه ! ونحن المسلمين نعرف زيغ هذا المسلك، ونوقن بأن موسى وعيسى ومحمدا يرفوضنه ! غير أن العراقيل التى رفضوا وضعها أمام الحرام ، وضعناها نحن أمام الحلال ، فأمسى الزواج فى عالمنا الإسلامى قاصمة الظهر.

على أية حال أرجو أن تعدو هذا الجانب ، وحدثنا عن الجوانب الأخرى للأمتين اللتين تتصدران الآن قافلة البشر...

سكت الرجل قليلا ثم قال : السمة الأولى فى هذه البلاد هو العمل الدائب الذى لاتنقطع حركته ، ولاتهدأ ضجته ، ولاتستريح الجماهير منه إلّا لتعود إليه على عجل ، كأنما كانت راحتها استجماما مؤقتا تستأنف بعده الكدح واللغوب !.

من مطلع النهار ترى سيولا من المشاة والركبان حثيثة السير إلى غايتها، سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون ، حتى إذا باشروا أعمالهم اشتركت الجوارح والمشاعر والأفكار والآلات والأجهزة والتقاليد فى جهاد هائل للإنتاج المطلوب، أو المفروض، ولاتضع هذه الحرب أوزارها إلا مع مواعيد الراحة المقررة ، ثم يدور دولاب العمل مرة أخرى لا يقفه شىء ! .

قلت : أهذا النشاط المحموم فى روسيا وأمريكا على سواء ؟ قال : نعم على سواء وإن

اختلفت البواعث، فالذى لايعمل فى روسيا يموت جوعا، إن ضمانات الأكل والسكنى لاتكون إلا مع بطاقة العمل ، وفى أى ميدان ترسمه الدولة ! .

قلت : وفى أمريكا ؟ قال : إن الأمريكى يبنى بيته ، ويشترى متاعه ، ويفصل بدلته ويقتنى سيارته بالأقساط التى تدفع شهريا ، فهو يقبض مرتبه ليحوله إلى هذه الجهات التى أقرضته ، وإلّا جاع وضاع ! ! .

واستأنف الرجل حديثه : هناك سباق رهيب فى الحقول والمصانع والأسواق والمدارس والمجامع جعل هذه الأقوام تبذر وتحصد القناطير المقنطرة ! ! .

قلت : وجعل من ينكر الألوهية قديرا علىخدمة إلحاده ، ومن يجعل الآلهة ثلاثة قديرا على خدمة شركه .. ترى ما القوى التى تخدم عقيدة التوحيد؟ .

وما الإنتاج الذى يظاهرها فى حرب أو سلام ؟؟ .

جورباتشوف والمسلمون

نشرت المجلة الفرنسية « اكتيالتى » مقالا قصيرا له عنوان مثير « الـ K.O.B ضد محمد » . تعنى أن المخابرات الروسية تخاصم صاحب الرسالة الخاتمة ..

جاء فى هذا المقال أن جمهوريات الاتحاد السوفييتى فى آسيا الوسطى ضاعفت هجومها على الإسلام خلال الأشهر الأخيرة ، وشددت النكير على طوائف المسلمين الذين يعيشون فى هذه الأقطار ــ وهم الكثرة الساحقة من السكان ــ بغية صرفهم عن دينهم وتزهيدهم فى عقائدهم وعباداتهم .

وقد لوحظ أن جماهير متحمسة أخذت تكثر من زيارة قبر «قربان مراد هشام» قائد المقاومة الإسلامية للغزو الروسى إبان الحكم القيصرى ! وهى مقاومة باسلة شجاعة حاول فيها مسلمو تركستان رد الجيش القيصرى الصليبى على أعقابه .

ومع استماتة المسلمين التى ضربت بها الأمثال فقد عجزوا عن ردّ الغزاة ، واحتل الصليبيون الروس البلاد ثم ورثها عنهم المستعمرون الحمر وفشل المسلمون مرة أخرى فى استنقاذ أنفسهم وتراثهم ، ومع ذلك فإنهم لم ييأسوا أو يستكينوا بل ظلوا مثابرين على الاحتفاظ بمقوماتهم الروحية والتاريخية ..

وقد ذكرت صحيفة « سوفيت أوزباكستان » أنه تم حل جماعة إسلامية نشيطة تعمل داخل البلاد لإحياء الإسلام ، وحكم على زعيم هذه الحركة بالسجن سبع سنين ــ وهو عامل فى « طشقند » العاصمة وأودع السجين فى معسكر معروف بالقسوة والشدة ! .

كانت الجماعة المنحلة توزع كتيبات ثقافية محررة باللغتين العربية والأوزباكية ، كما كانت توزع أشرطة سجل عليها القرآن الكريم .

وصرحت الصحيفة الشيوعية أنه فى الفترة نفسها تم إغلاق مدرسة غير قانونية تقوم

بتحفيظ القرآن وتعليم الإسلام ، وتبيّن أن المدرسة يديرها «ملاً» مجهول !! .

إن اشتعال الروح الإسلامية شرق ووسط الاتحاد السوفييتى أغضب «جورباتشوف» زعيم روسيا الكبير ، وحمله على المطالبة الملحة بإعلان حرب جديدة على الإيمان والقضاء على بوادر عودته بسرعة وحسم ، وتغيير عدد من الزعماء المحليين المعتدلين..

إن الصحوة الإسلامية تنساح فى أرجاء العالم الإسلامى كله . وتهز بالحياة كيانا طالما أغفى واسترخى !! .

فهل يدرى العرب ذلك ؟ وهل ترصد صحفهم هذه الحركات النبيلة ؟ أم سنعرف أنباء إخوان العقيدة من الصحافة الأجنبية ؟ .

ماذا فعلنا لهم ؟

المسلمون فى الاتحاد السوفييتى يزيدون على ربع السكان ، وهم كثرة فى شرقه وجنوبه وقلة مبعثرة فى وسطه وشماله ، ومع أن البقاع التى يسكنونها مصدر قوة وغنى للروس فإن جمهرة المسلمين مغموطة المكانة ضائعة المستقبل ..

عندما كانت روسيا تحت حكم القياصرة كان المسلمون يعاملون بوصفهم كفارا خضعوا للكنيسة الشرقية ! وعندما سقطت الكنيسة فى أيدى الثوار الحمر الكارهين للدين كله تحمل المسلمون كفلين من العذاب ، وانضم إلى التعصب القديم تعصب جديد .. ! .

وقد تابعت التغيّر الذى طرأ على الإدارة الشيوعية فى عهد زعيمها الجديد « ميخائيل جورباتشوف » وحاولت أن أستبين أبعاده فمادا وجدت ؟ الرجل يحاول تنشيط الاقتصاد الشيوعى حتى يلحق فى الجودة والغزارة بالاقتصاد الغربى ، ويريد أن يتولى المناصب الكبرى رجال أقدر وأذكى وأحب إلى الجماهير ! ويريد أن يداوى ضعف الحوافز وشدة الصرامة وقصر النظر فى الرياسة المركزية لشتى الصناعات والزراعات ...

هذا ما سُمّى انفتاحا فى السياسة الجديدة ، إنه انفتاح يعين على اللحاق بدول أنجح وأقدر على ترفيه الشعوب .. أما الناحية التى تهمنا فإن الرفيق « ميخائيل » ضاعف الدعوة إلى الإلحاد ، وشن غارات أوسع على اليقظات الدينية ، وقاوم كل نزعة إلى الإيمان بالله . وكان نصيب المسلمين كبيرا من هذا البلاء إذ طرد بعض زعمائهم وأحكم الرتاج على أنشطة عامية واجتماعية كان المتدينون ينفسون بها عن أنفسهم ...

ومع سخطنا الشديد على هذا العمى المضاعف ، وألمنا لعشرات الملايين من المسلمين البائسين فإنى لا أملك إلا أن ألوم نفسى وإخوانى .. إن اليهود فى الاتحاد السوفيتى أقل من ٢٪ من عدد السكان ، ومع ذلك فقد وصلوا إلى مناصب علمية حساسة ، ونالوا جوائز عالمية فى

أهم الثقافات وأعلاها قدرا ، وسُمِعَتْ أصواتهم مدوية فى قصة حقوق الإنسان ، واستعدت فئات من العامة والخاصة للهجرة إلى إسرائيل كى تدعم مستقبل اليهودية ! .

ما الذى شغل المسلمين عن هذه الأنشطة ؟ ما الذى أخفت صوتهم فى هذه الساحات ؟ .

أخشى أن تكون الثقافات المغشوشة والخلافات فى الفروع الفقهية قد خدَّرتهم أكثر مما خدَّرتهم الشيوعية نفسها ، وهذه هى الطامة .

أنجلز المؤيد لاحتلال الجزائر !

إذا ذكر «كارل ماركس» ذكر معه رفيق النضال وشريك الفكرة «فردريك انجلز» فهما معا مخططا الشيوعية وراسما مسارها ، والشعار المرفوع هو تحرير الشعوب وتكريم الإنسانية وتكسير قيود الاستغلال والاستضعاف التى وضعها أعداء الجماهير وعبيد أنفسهم ! .

فلنلق نظرة عجلى على تفكير «أنجلز» وآرائه فى أحد الشعوب العربية عندما كان مراسلا فى باريس لصحيفة «ذى نورثن ستار» الانكليزية ، وكان الفرنسيون فى ذلك العهد يشنون حربا صليبية عدوانية على الجزائر ، وكان الدم الإسلامى يسفك بغزارة ، وكانت القيم البشرية تداس تحت أقدام الغزاة بازدراء وغضب ..

ماذا كان موقف فيلسوف الشيوعية الكبير؟ انحاز إلى الاستعمار الفرنسى فى مواقفه الغادرة لأنه يحقق نوعا من تسلط البورجوازية المتحضرة على الجزائريين الذين وصفهم بأنهم لصوص وإقطاعيون ! ! .

وكان الفرنسيون قد وعدوا الأمير عبد القادر بعد هزيمته أمام جيوشهم الكثيفة أن يدعوه ينطلق إلى مصر أو أى بلد عربى ، ثم بدا لهم أن يستبقوه أسيرا ، فقال انجلز : من رأينا أنه من حسن الحظ القبض على هذا الزعيم العربى ، ذلك أن نضال البدو معه كان بلا جدوى .

وقال: ورغم التعسف العسكرى الفرنسىّ الجدير باللوم فإن احتلال الجزائر هو فى مصلحة التقدم الحضارى ، وسيوقف قرصنة دول المغرب كلها ، وسيطرتها على البحر المتوسط وسيرغم حكومات هذه الدول على التماس وظائف أخرى لشعوبهم غير القرصنة ! وغير أخذ الجزية من دول أوربا الصغيرة ..

ثم يقول : فيلسوف الشيوعية الشريف النفس : إذا كنا نأسى لأن بدو الصحراء

فقدوا حرياتهم فلا ينبغى أن ننسى أن هؤلاء البدو كانوا أمة من اللصوص ! إن هذه الشعوب من الهمج تبدو من بعيد شريفة ماجدة لكنك لن تكتشف حقيقتها إلا إذا اقتربت منها لأنك عندئذ ستجدها محكومة بالرّغبة فى الربح غير مبالية بأسوأ الوسائل ..

ثم يختم «أنجلز» تعليقه بهذه الكلمات : إن الفرنسى المزوَّد بالحضارة والصناعة أفضل لهذا المجتمع الهمجى من السيد الجزائرى الإقطاعى ، أو اللص قاطع الطريق .

هذا هو رأى قطب الشيوعية فينا ! نهديه للشيوعيين العرب ، ونعلم أنهم سيقبلونه باحترام !!! .

مقولات تلامذة المبشرين

رأيت حشرة تطير فى الجو تستطيع لضآلتها أن تلج فى سم الخياط ! قلت : سبحان المشرف على أجهزتها وأجنحتها ! إنه فى الوقت نفسه يشرف على طيران أرضنا فى مدارها بل كوننا كله فى فضاء يقطعه الشعاع فى مليارات من السنين الضوئية ! .

إننى عرفت طرفاً من عظمة الله بعد ما قرأت كتاب محمد وسيرة محمد وسنّة محمد .

وأعترف بأننى قرأت كُتُباً أخرى تنتمى إلى السماء ، فشعرت بأن حديثها عن الله بالنسبة إلى حديث القرآن الكريم خامد الأنفاس معتم الفكر زائغ الهدف ... !! .

ومع ذلك ، فإن ناساً كفروا بالقرآن ، وكذبوا نبيه ، أولهم أسراب من البدو فى الجاهلية الأولى «قالوا : أساطير الأولين اكتتبها فهى تملىّ عليه بكرة وأصيلاً» .

ثم جاء من بعدهم عصابات من المبشرين والمستشرقين تتبعوا خطى البدو القدامى حذوك النعل بالنعل ، وحملوا على القرآن حملة شعواء ..

ثم جاء شر الثلاثة ، وهم تلامذة المبشرين فى بلدنا ، فكرروا كلام سادتهم بأسلوب لم أعجب له ، حمله إلى الناس الدكتور «محمد أركون» فى مقال له عن الإسلام والعلمنة جاء فيه «نقول ذلك دون أن ندخل فى متاهات «الثيولوجيا» ودون أن نعتبر القرآن كلاماً آتياً من فوق ..» !!

القرآن ليس وحياً إلهيا ، ليس هذا اتهاماً جديداً ، إننا سمعناه من قبل ، وعرفنا قيمته ووزن قائليه . لكن العجب العاجب أن يكون أصدق الكلام موضع اتّهام ، أما الكتب المغشوشة فلا حديث عنها .

التوحيد النقىّ ، وكشف الغطاء عن عظمة الله فى ملكوته ، وتحرير العقول من أثقال الهوى وقيود التقليد ، وتبرئة الأنبياء من السكر والزنا والغش والغدر وتحديد مسئولية

الضمير الإنسانى فى العاجلة والآجلة ، ذلك كله ليس آتياً من فوق ! .

يظهر أن الوحى الإلٓهى يجب أن يكون فكراً وضيعاً ، وأوهاماً مريضة .. لندع هذا كله ..

ولننظر إلى شىء آخر ساقه الدكتور أركون ضد القرآن ، ولعله أول من اخترعه ، فله حق الاختراع ! إنه يذكر أدلة أخرى على أن القرآن لم يأت من فوق ، فهناك « محاولة البحث عن وثائق أخرى كوثائق البحر الميت التى اكتشفت مؤخراً ، ويفيدنا أيضاً سَبْرُ المكتبات الخاصة عند دروز سوريا وإسماعيلية الهند أو زيدية اليمن أو علوية المغرب ! ! يوجد فى تلك المكتبات القصية ـ هكذا يقول الدكتور المكتشف ـ وثائق نائمة ، متمنعة ، مقفل عليها بالرتاج ! » .

هذه الوثائق النائمة ، المتمنِّعة كالست المستحيية تشهد بأن القرآن لم يأت من فوق ، وكذلك مخطوطات البحر الميت .. ! ! .

إننى على كثرة ماقرأت ضد الإسلام لم أجد أحقر من هذا الكلام ..

وانتظار تكذيب للقرآن من هذه المصادر الوهمية ليس كلاماً علميا ولا قريباً من العلم .

ونحن نوجه السؤال إلى المسئولين عن جامعة السربون : هل هذا هو أسلوبكم فى دراسة القرآن والتحامل عليه ؟ هل هذا أساس الإجازات العلمية التى تمنحونها ؟ هل هذه نزاهة البحث وتحرى الحقيقة ؟ .

إن معالجة البحوث الإسلامية بهذا المنهج شىء مضحك حقا ، ألا فلنعرف قيمة هذه الجامعات الخادعة ومشاعر الحقد الأعمىٰ التى تستخفىٰ وراء ألقابها ...

جهـل فوق جهـل !

أشعر بالضجر عندما أقرأ لكاتب يسىء الفهم ويسىء الحكم ويُحْسِن التحدى! .

يقول الدكتور أركون «فى النقاش الذى دار حول خلافة النبى» : كان هناك طرف يمثل عائلة النبي نفسه ، كان هؤلاء معبَّئين بتلك العصبية غير المشروطة التى تقتضى بأن ينصر الأخ أخاه ظالماً كان أو مظلوماً ! كما يقول العربى .

وهذا الكلام جهل فوق جهل ، فإن أحداً من عائلة النبى لم يحضر النقاش الذى دار فى سقيفة بنى ساعدة حول اختيار الخليفة ، وما دار بين المجتمعين لا علاقة له بعصبية غير مشروطة كما يذكر الكاتب فى المثل الذى ساقه ! .

هذا المثل هو النصف الأول من حديث صحيح «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، قيل كيف ننصره ظالما ؟ قال تحجزه عن ظلمه !» فمنطق الأخوة الإسلامية أن تكفّ أخاك إذا جار ، وأن تعترض طريقه إذا تعدّى ! .

فأين هى العصبية التى تؤيد المبطل لأنه قريب ؟ .

يقول الكاتب : وهنا نجد أنفسنا أمام مسألة تخص علم «البسيكولوجيا» التى يجهلها التاريخ الوضعى .

أى علم يا رجل ؟ يظهر أننا أمام مسألة من اختصاص علم الماليخوليا والتهريج الاستشراقى .

ويمضى «أركون» فيقول عن جمع القرآن : «كان طبيعياً أن تطرح مسألة جمع هذه السور فى كلّ متكامل ، فكر الخليفة الأول بتجميع أكبر عدد من السور وكتابتها من أجل حفظها !

وقد وضع هذا المصحف عند عائشة بنت أبى بكر .. » .

فى هذه العبارات جملة أكاذيب ، فإن أبا بكر ما كتب ولا أمر بكتابة شىء من القرآن .

الأمر الذى أصدره هو جمع المكتوب بين يدى رسول الله ، وقد جمعه كله ، وأودعت الصحائف عند حفصة لا عند عائشة .

والمصحف الذى جمع لا علاقة له بالتواتر القرآنى المقطوع به قبل الجمع وبعده ، فقد قامت بالقرآن وللقرآن دولة على عهد النبى صلى الله عليه وسلم كانت سياجاً حكوميا يظاهر السياج الشعبى الذى استوعب القرآن حرفاً حرفاً .

والصحف المودعة لدى حفصة انتفع عثمان بها فى ضبط وجوه القراءة وحسب ، ولم يزعم أحد أن جماهير الحفاظ احتاجت إليها فى تلاوة أو فى دراسة ..

هل يعرف الدكتور أركون أن إنجيل عيسى اختفى باختفائه ، وهرب الأتباع من بطش الدولة المعادية له ؟ .

هل يعرف أن موسى مات وقومه محبوسون فى أرض التيه فلما قامت لهم دولة بعد ذلك هجم أعداؤها عليها وهدموا الهيكل واختفت التوراة ؟ .

إنه لا يعرف أن القرآن وحده هو الذى بقى من تعاليم السماء للأرض ، ولكن السادة الذين لقنوه خصومة الإسلام أفلحوا فى تجريئه على القرآن ونبىِّ القرآن .

إنه يتحدث فى مقال طويل عن صاحب الرسالة الخاتمة فيفقد فى تعبيره كل أثارة من احترام وحياء ، بينما يتحدث بخشوع وأدب جم عن البابوات الذين جعلوه مسئولا عن الثقافة الإسلامية فى السربون .

من دروس مصرع عثمان بن عفان

أحيانا أقف أمام مصارع الصالحين لأطيل التفكير ! قد أفكر فى حقارة الدنيا التى غادرها هؤلاء الرجال على نحو مزعج ، وأسلوب خشن غليظ وأقول : لو كان لها عند الله مقدار ماهان فيها أولياؤه ، وسفكت دماؤهم بهذه الطريقة الهمجية ! .

أو أقول : ما أشد ظهور الحق لدى بعض الناس ، وخفاءه لدى بعض آخر ! حتى أرى البعض يموت فداء لما يعرف وأرى آخرين يميتون غيرهم غضبا لما يعرفون ! .

ونحن نعلم أن اليوم الذى يقتل فيه شهيد هو يوم ميلاده فى ساحة الخلد ، وانتقاله إلى جنة النعيم ! ومع ذلك فإن سخطنا لايخف عن المجرمين الذين سفكوا دمه ، وأباحوا حرمته ..

ولى أصحاب رفع الله قدرهم فاستشهدوا وسبقوا سبقا بعيدا ، ولى أساتذة قضوا سحابة عمرهم مجاهدين ثم توِّج جهادهم بتمزيق أجسادهم فى سبيل الله، إنهم الآن سعداء بما قدَّموا ، وقد أقرأ لهم الآن أو أقرأ عنهم ثم أغوص فى لجج عميقة من الفكر ، ما أغلى حياة الشهداء ، وما أغبى الذين ظلموهم .

ما الذى أثار هذه المشاعر فى نفسى ؟ كلام قرأته لعثمان بن عفان وهو يحاور قتلته قبل أن يتمكنوا منه ! قال لهم : « إن وجدتم فى كتاب الله أن تضعوا رجلىّ فى القيود فضعوهما » ! .

ولما رأى إصرارهم على قتله قال : لم يقتلوننى وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يحل دم امرئ مسلم إلا فى إحدى ثلاث ، رجل كفر بعد إيمانه ، أو زنى بعد إحصانه ، أو قتل نفسا بغير نفس ، فوالله ما زنيت فى جاهلية ولا إسلام قط ، ولا تمنيت أن لى بدينى بدلا مذ هدانى الله ، ولا قتلت نفسا ، ففيم يقتلوننى ؟ .

وجاء زيد بن ثابت إلى عثمان يقول له : هؤلاء الأنصار بالباب يقولون : إن شئت كنا أنصاراً لله مرتين؟ فقال عثمان : أما القتال فلا .. !! .

إن عثمان كان غريبا فى نبله وإيثاره السلام ورفضه المقاومة الدامية كما كان غريبا فى حياته وسخاوة نفسه ودماثة أخلاقه وحبه لربه !! .

ووثب الغوغاء والسّفلة على الرجل الذى تستحى منه الملائكة فقتلوه وهو يتلو القرآن الكريم .

قال محمد بن سيرين : لما أحاطوا بعثمان ، ودخلوا عليه ليقتلوه قالت امرأته : إن تقتلوه أو تدعوه فقد كان يحيى الليل بركعة يجمع فيها القرآن ! .

إن كلمات عثمان قبل أن يموت ، وبلاءه الطويل فى خدمة الإسلام ، وجراءة الرعاع عليه دون أى احترام لسابقته ، إن ذلك كله أثار فى نفسى الاحتقار للدنيا ، والازدراء للغوغاء والنقمة على خصوم الحق ...

كما جدّد مشاعر الولاء والتقدير لكل شهيد ختم الله حياته بالموت فى سبيله ، فأحياه أولاً وأحياه آخرا .

ملك الانجليز الذى أسلم

عاب المؤرخ المغربى الدكتور عبد الهادى التازى على ابن خلدون أنه قصّر فى التعليق على رسالة الملك « جوهان » حنّا إلى الخليفة الناصر محمد الموحدى فى الأندلس ، وهى رسالة جاءت مع سفارة مشهورة سجل التاريخ الانكليزى أعضاءها ،وفيها يعرض الملك على خليفتنا اعتناق الإسلام ودخوله هو وشعبه الانجليزى فى أمة التوحيد ! وقد غضبت البابوية لذلك أشد الغضب ، وبذلت جهودها للقضاء عليه والانتهاء من هذه البادرة وهى فى المهد ... وغضب البابا مفهوم ! ولكن الأمر الذى لا يفهم والذى لا ينقضى عجبنا منه ، هو سكوت ابن خلدون وسكوت المؤرخين بعده عن ذلك الحدث المثير! .

فالملك «جون» أو حنّا هو صاحب «الماجنا كارتا» أعظم مواثيق الحرية عند الانكليز ، وتاريخه ومسلكه لا غموض فيهما ، وإعجاب الرجل بالإسلام لا ريب فيه ! ترى أين كنا ؟ وماذا صنعنا؟ .

وفيما أنا أفكر مشدودا إلى هذه القضية وقع بين يدىّ كتاب آخر للمؤرخ المصرى مصطفى الكنانى يثبت فيه بأدلة كثيرة أن هذا الملك المعجب بالإسلام كان خلفا لملك آخر أسلم فعلا ، هو الملك «أوفاركس» الذى حكم انجلترا تسعا وثلاثين سنة (٧٥٧ ـ ٧٩٦م)، وقد ابتعد هذا الملك ابتعادا كبيرا عن الكنيسة وغيّر العملة ، فسكّ دينارا ذهبيا محا منه شارة الصليب ، وكتب على أحد وجهى الدينار شعار الإسلام «لا إله إلا الله » .

وقد نشر المؤلف المصرى صورة الدينار الجديد فى كتابه منقولة عن المتحف البريطانى ! .

وبدهى أن يهيج البابا لما وقع ، وأن يرسل رجاله إلى انجلترا لمقاومة ما اعتبره ردة منكرة ، بيد أن الملك المسلم ثبت على معتقده الجديد حتى مات ..

وقد نجح خصومه بعد موته فى النيل منه، فلم يدفن فى مقابر الملوك المخصصة لأمثاله بل أودع قبرا معزولا فى مكان تكثر فيه الفيضانات المدمرة ، ثم أهيل التراب على حياته وكفاحه حتى أمسى نسيا منسيا .

إن الكنائس الموحِّدة أبيدت فى أوربا ، والرجال الذين تأثروا بالإسلام إيمانا وحضارة وثقافة قضى عليهم بالحديد والنار مهما كانت مناصبهم ومعارفهم ..

إننى لا أوجه أصابع الاتهام إلى خصومنا ! ! إننى أوجهها إلى أجهزة الدعوة عندنا ، فإنها لا تكيد عدوا ولا تدعم صديقا ، وإلى مؤرخينا الذين لم يتابعوا مسيرة الإسلام شرقا وغربا ولم يسجلوا ما وقع له ! ! .

خرافة تدويل الأماكن المقدسة

أسطورة تدويل الأماكن المقدسة تبدو عند التأمل سرابا خادعا أو هى إلى الهزل أقرب منها إلى الجد ، فالدول الإسلامية عندما تنتمى إلى الإسلام تأخذ منه وتدع ، وتقارب وتباعد ، وعدد كبير منها لا يرتبط بشرائعه ، وسيكون الْحَرَمَانِ ـ والحالة هذه ـ أضيع من الأيتام فى مأدبه اللئام ! .

ما الذى تصنعه للحرمين الشريفين دولة تبيح الخمر وتفتح حاناتها للسكارى وتحميهم وهم يشربون ؟ .

ما الذى تصنعه للحرمين دولة تنظم البغاء ، وتكشف طبيا على المومسات حتى يطمئن الزناة إلى مواقعتهن دون خطر ؟ .

ما الذى تصنعه للحرمين دولة ترى صيام رمضان معطلا للإنتاج ، فتأمر بالإفطار ! .

أى إنتاج تعطل ؟ أكياس من العجوة ، أو أوان من زيت الزيتون؟ فكيف لو كانت الأفران تصهر الحديد ، والمراصد تعدّ لغزو الفضاء ؟ أى هزل هذا ؟ .

ما الذى تصنعه للحرمين دولة تحارب الفتيات الأطهار وهن يرغبن فى الحشمة ويرتدين ملابس الحجاب ؟ .

إن الجهاز الإدارى للجامعة العربية يكاد يتوقف لأن مجموعة كبيرة من الدول الأعضاء لاتدفع القسط المقرر عليها ! .

فهل تنتظر توسعة الحرم المكى أو المدنى هؤلاء المفلسين حتى تجتمع لجنتهم الدولية وتقدم الفتات الذى لا طائل وراءه مصحوبا بمنٍّ وإدلال لا آخر لها ؟؟ .

ومن الدول الإسلامية من يرى انتماءه إلى القومية الإفريقية أحظى لديه من الانتماء الإسلامى ! ولم لا ؟ وإفريقية مجمع الأمجاد ومشرق الحضارات وأم الفلسفات . أما

الإسلام المظلوم فدون ذلك ! وإذا لم تستح فاصنع ماشئت ...

لقد توزعت الألوان الكثيرة على رايات الدول العربية والإسلامية بين أبيض وأسود وأحمر.. الخ ولم تجرؤ دولة على إبراز شعار التوحيد ، ووضع كلمة الإسلام على رايتها فهل الحكومات الجبانة التى وجلت من السير تحت كلمة « لا إله إلا الله .. » هى التى تتولى خدمة حرم الله ؟ .

لست منتميا إلى قومية ما ، ولا أرضى عن الإسلام بديلا ، وإذا رأيت من يلتمس شرفا من خدمة الحرمين فكيف أوثر عليه من يلتحق ذَنَبا بفكر أوربى أو أميركى علمانى أو غير علمانى ؟ .

إن كلمة التدويل عملة مزيفة ، أو هى حديث خرافة .

مناظرة ديدات وسواغارت

كنت واحدا من الألوف التى شهدت المناظرة الكبيرة بين الداعية الإسلامى الشيخ أحمد ديدات ـ من جنوب افريقيا ـ والمبشر النصرانى « جيمى سواغارت » ـ من الولايات المتحدة ـ وسرنى أن المناظرة تمت فى هدوء ، وكانت الصراحة فيها محكومة بأدب المجاملة ، وأحسب أن كلا الفريقين قال أكثر مما عنده ...

غير أننى تأملت طويلا فى عبارتين وردتا على لسان القس جيمى ! قال فى أولاهما : إن نبوءات الكتاب المقدس صدقت كلها فلماذا أرتاب فيه ؟ والمبشر البروتستانتى يقصد بالنبوءة التى تحققت قيام إسرائيل ، ونحن نعلم أن عودة اليهود إلى فلسطين صرحت بها إصحاحات شتى فى العهد القديم ، وقد ذكرتُ القضية كلها فى كتابى « حصاد الغرور » ! .

والمسيحيون فى أوربا وأمريكا يؤيدون قيام إسرائيل لأسباب دينية ، وجماعات المبشرين على اختلاف كنائسهم تظاهر الغزو اليهودى ، وقد نجحت فى تأليب الشعوب والحكام ضد عرب فلسطين ، ونجحت فى تسويغ المظالم الفادحة التى تنزل بهم كيما تصدق نبوءة الكتاب المقدس ! .

ومع خساسة هذه المعجزة القائمة على الخيانة والاغتيال فقد قلت : ليكن ! إن لدينا نبوءة أخرى تقابلها أو تقاومها ، إنهم يتجمعون للعدوان علينا ولكن القصاص سيكون رهيبا ، « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

أما العبارة الأخرى التى جاءت على لسان المبشر جيمى فهى أن الله ضحى بابنه الوحيد ليكفر عنا خطايانا ! ونحن المسلمين نعلم أن الله لايلد ولايولد ، وشأن الألوهية فوق هذا الإسفاف .

بيد أنى أريد أن أكشف أثر هذه المقولة فى مسالك المبشرين ناقلا ما أقول عن الصحافى الكبير ناصر الدين النشاشيبى الذى أعلن أن سلسلة من الفضائح أخذت تطفو على السطح عندما راح المبشر « جيمى سواغارت » يعلن من مقر إقامته فى « لويزيانا » حربا على زميله المبشر «جيمى بيكر» ويتهمه بإقامة علاقة جنسية سرية مع سكرتيرته الحسناء الآنسة « جاسبك هان » .

وقد قامت السكرتيرة المذكورة على الفور برفع الدعوى ضد مديرها طالبة التعويض السريع وما مضى أسبوع حتى كان المبشر الآخر «جيمى بيكر» يتهم زميله « جيمى سواغارت » بسرقة تسعين مليون دولار من خزينة الكنيسة التى يشرف عليها ، وبأنه يمارس نوعا من النفاق الدينى المنبوذ ... الخ » .

إننى لم أفاجأ بهذه التهم المتبادلة فقد قرأت من زمان بعيد قوله تعالى : « إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله » ولم لا يفعلون ذلك وقد ضحى الله بابنه الوحيد ليغفر لهم ؟ .

هذا هو بطل المناظرة الكبرى فى الدفاع عن الصليبية .

زحف الصحراء على أقطارنا

زحف الصحراء على أقطار العالم الثالث مشكلةٌ حقيقةٌ بإنعام النظر ، فإن مساحة الأرض التي أجدبت ـ وكانت خصبة ـ تضاهي مساحة غرب أوربا كله . تحت أراضي المغرب الكبير وحده ! أما في شرق إفريقية فإن الحبشة والصومال وأريترية وغيرها قد اكتسحها الجفاف ، ولا يقل مصابها عن مصاب وسط إفريقية وغربها ، والمسلمون هم جمهرة السكان في هذه البلاد المنكوبة !

قال المراقبون : لابد من زراعة غابات كثيفة تحمي الرقعة الخضراء كما أنه لابد من تحويل المراعي على عجل إلى حقول دائمة البذر والحصاد فإن تركها إلى غيرها عندما يتخلف المطر يجعلها صحراء بعد حين ! .

قلت : زراعة غابات تحمي ما وراءها لا تحتاج إلى عبقرية ! إنها عمل بشريٌّ عاديٌّ وكذلك استدامة حرث الأرض لإنتاج الحبوب والبقول ! هل نتصل بعالم الجن لاستقدام نفر منهم يقوم بهذه الوظائف ؟ .

ما الذي عرا النفس الإسلامية حتى انطفأ وهجها وبرد نشاطها وأمست تحسن الاستغاثة والاستجداء أكثر مما تحسن الكدح والربح ؟ ولنفرض أن المتصدقين أرسلوا إليهم قناطير من الخبز والدهن ، أذلك يغير حالهم ويذهب عيلتهم ، إنه نجدة إلى حين ؟ .

المشكلة نفسية قبل كل شيء ، لماذا يكون نهر النيل على بعد ميل منا ثم لا نستورد منه مياه الريّ ؟ لماذا نترك السيول تنداح لتتبدَّد في العراء أو في المحيطات ولا نقيم حولها سدوداً تخزن مياهها ؟ لماذا تكون المياه الجوفية تحت أقدامنا على مدى عشرة أو عشرين ذراعا فلا نستخرجها ؟ إن الله لايقبل صلاة الاستسقاء من كسالى خاملين ؟ ولا يمنح عونه لمن يعجز عن معونة نفسه ! ! .

إن الهوام والحشرات تسعى لتأمين حياتها ، فهل يعجز عن ذلك بعض البشر؟ وقد رأينا أتباع أديان أخرى فتتوا الصخور وجعلوا القيعان الناشفة حدائق غناء فهل اختُصصْنا نحن المسلمين بالبطالة فى عالم يهتز تحت أقدام المَرَدَةَ ؟ .

فى كتابنا الكريم أن الله سخر لنا ما فى الأرض فكيف أضحينا نحن مُسَخَّرين فى الأرض ؟ يبتُّ فى مصيرنا من يقول : الآلهة ثلاثة ! ومن يقول : لا إله والحياة مادة ! ومن يقول : أصنام بوذا وبراهما أجدر بالبقاء ، ومن لايقول شيئا ، لأنه لا شىء عنده .. !! .

إنك لن تكون جنديا إذا سرقت بدلة جندى وارتديتها ، فالعسكرية علم ودُرْبةٌ وليست ثوبا يُلبس .. وكذلك التدين ، إنه صقل للنفس والفكر ، وارتقاء بالخصائص الإنسانية وإحسان لقيادتها ، إنه قدرة على تسيير الحياة وتقويم عوجها ، لا تماوت وشلل وغرور ودعوى .

الإيمان بالغيب والإيمان بالخرافة

الإيمان بالغيب من سمات المتقين ، فأهل الدين يؤمنون بالمادة وبما وراء المادة ، ويوقنون بأن الكون المحسوس ليس الوجود كله ، بل وراءه وجود أرحب منه وأبقى ..

بيد أنى أرفض أن يكون الإيمان بالغيوب ذريعة إلى الإيمان بالخرافة ، وثغرة ينفذ منها أصحاب العقول السقيمة لترويج الأساطير وتصديق الترهات ..

ومصاب الأديان يجيء من أناس يختلقون الإفك ثم يقحمونه إقحاما على حقائق الدين تحت عنوان الإيمان بالمغيبات ..

وقد ذم القرآن الكريم بنى إسرائيل لأنهم حوَّلوا الدين إلى هذه الوجهة أيام تخلفهم العقلى والخلقى « ... واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر .. »

إن العلوم المادية لها منطق صلب يكشف عن حقائقها وتدرس به فى شتى المعاهد ، والعلوم القائمة على مصادر غيبية لها مهاد ثابت من الوحى المعصوم ترتبط به وتستمد صدقها منه ..

ومن ثم فلا مجال لذوى الخيال الجامح والهوى الطافح أن يخدعوا الناس ، ولا مجال لمن فقدوا الاتزان العقلى أن يلتصقوا بالدين أو يجعلوا كلامهم من قبيل الغيوب المسلمة ..

إن للوحى الإلهى معالم اختص بها وهو يتحدث عن عالم الغيب ، فميلاد عيسى من غير أب ليس قاعدة يقاس عليها ، وطيران عرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين كذلك ، وخالق الأسباب لا تحكمه الأسباب ، والمرويات من هذا الباب لا تتبع خيالات من كتبوا ألف ليلة وليلة !

إن خبر المعصوم الذى قطع العقل بصدقه هو الأساس .

وقد روج بعض المتصوفة والخرافيين لأمور عكرت صفو الدين وأثارت الشغب على تعاليمه يجب أن نسارع إلى تكذيبها .

وفى بعض الكتب أن الشيخ فلان كان الطير فى السماء يقف لوعظه ! وأن طيورا سقطت ميتة من فرط تأثرها به ! وأن مصلين نقلوا إلى المقابر بعد سماعهم له .. ! ! .

وهنالك ناس كانت شواطئ البحار البعيدة تدنو لهم فينتقلون من المشرق إلى المغرب سابقين رواد الفضاء الآن ..

وليست المصيبة فى رواج هذه الأكاذيب بل فى أناس يريدون باسم الدين تصديقها والدفاع عنها ..

يجب إقصاء الملتاثين عن ميدان الدعوة الدينية ، إنهم بلاء على الإسلام وفتنة للذين كفروا .

إن الإسلام ــ وهو لب الأديان كلها ــ يقوم على أضواء المعرفة ، ونضج العقل ، وهو عدو السفه والبلاهة ...

سر هزائمنا المتلاحقة

ظل العالم الإسلامىّ قرابة ألف عام وهو متجانس متماسك يشد بعضه أزر بعض ويأرِزُ إلى عقيدته الجامعة كلما تهدد كيانه خطر.

وليس معنى ذلك أنه كان منتصرا طوال تاريخه ، لا ، إنه كان بين كرّ وفرّ، يكبو ويقوم ، ويخسر ويربح ، وينال من الأعداء وينالون منه ، ولكنه منذ فقدان الأندلس سنة ١٤٩٢ م ، وهى سنة اكتشاف الأمريكتين وقع تغير رهيب فى حياته ، فقد أخذت أرضه تنتقص من أطرافها ، استولى الروس على الشمال الشرقى منها ، فضاعت سيبريا والتركستان وأقطار أخرى ، واستولى الاستعمار الهولندى والاسبانى على الجنوب الشرقى فضاعت الفلبين وأندونسيا ، واقتسم الانكليز والفرنسيون الهند والهند الصينية .

أما فى غرب العالم الإسلامى فبعد ضياع الأندلس دارت رحى الحرب فى إفريقيا كلها ، وتناولت أقطار المغرب الخمسة . وعاثت فسادا فى سائر المدن والقرى الواقعة شرقى الأطلسى ، وتحت الصحراء الكبرى أو فوقها .

ثم اتجه هذا الغزو الحاقد إلى صميم العالم الإسلامىّ ، هاجما على فلسطين ، ومتأهبا لما حولها ...

وبدا كأن الكيان الكبير القديم يوشك على التداعى ! لولا المقاومة الهائلة المستميتة التى أشعل نارها أولو النجدة والفداء وحماة الحق الباقون على الوفاء له إلى آخر رمق ...

وأريد ـ فى ميدان العلم الدينى ـ أن أنبه إلى أمر له مابعده : لماذا لم نبحث أسباب هذه الهزائم والخسائر الفادحة ؟ هل ترجع إلى غش ثقافىٍّ ، أو عوج خلقىّ ، أو خلل سياسى واقتصادى ، أو زيغ فى التقاليد السائدة أو قصور معيب فى خبرتنا بأسرار الكون وقواه المادية ، أم إلى مزيج متفاوت النِّسب من هذه العلل جميعا؟؟.

إن أصحاب الألسنة الذين يسكتون عن هذه البحوث ، وحملة الأقلام الذين يدعونها إلى غيرها يقترفون خيانات قاتلة فى حق دينهم وأمتهم ..

إن الذين يجترون الأفكار والمقررات التى صاحبت عصر الاضمحلال ، وأسقطت راية الإسلام فى غير ميدان يساعدون أعداء الإسلام على بلوغ أهدافهم ..

ما الذى أفقد كياننا قوة الاندفاع ثم جعله يتلقى الضربات ويضرع أمامها ؟ إن الإسلام الحق أمكن العرب ـ وكانوا شعبا خفيف الوزن ـ أن يكونوا الدولة الأولى فى العالم كله ، وأن يقدموا رسالتهم بشرف إلى الأحمر والأسود من الناس ! ماهى المعاصى الخلقية والسياسية والثقافية التى ارتكبوها فأصابهم ما أصابهم ؟؟.

إننى أرسل هذه الصيحة ، لأنى أجد متحدثين باسم الإسلام لايعون أبجديات الإيمان الحق والاتجاه الصحيح ... إنهم يؤخرون يوم النصر ولايقدمونه .

نهج النبى فى التربية

الظلمات التى تملأ آفاق الأمم بالسواد هى ظلمات الكفر والجهل والفوضى والفساد ، وقد تساءلت : كيف كشف محمد صلى الله عليه وسلم هذه الظلمات ، وأنقذ الناس من حيرتها وأنا أتلو قوله تعالى : «كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ... »

إن أخاه السابق موسى أنقذ قومه من ظلمات الاستبداد السياسى والتفرقة العنصرية بعد رحلة طويلة من المعاناة مع الفراعنة « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله ... »

والنبى الخاتم مكلف بإخراج العرب أولاً ثم العالم كله من بعدهم إلى حياة جديدة ملأى باليقين والمعرفة والنظام والصلاح وأن يشق بهم طريق الكمال شقا فى نهج من التربية الواعية والمجاهدة النفسية القاسية ..

لقد حول عقيدة التوحيد من فكرة نظرية صحيحة إلى سلوك عملىّ صارم محسوس ، خذ مثلا قضية المال : إن حب الناس للمال معروف ، وكدح الجماهير لكسبه سحابة النهار لا ريب فيه .. فجاء القرآن يصف الإنسان البار بأنه يقهر هذه الغريزة ، وأنه يؤتى المال – على حبه – من يحتاجون إلى العون والمواساة ...

وفى الناس من يتنازل عن المال لعوض آخر أحظى لديه ، حب الثناء وطلب الشهرة ، أليس ذلك مايقرره حاتم الطائى :

أماوىَّ : إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر !

لكن القرآن الكريم يرسم أوجًا أعلى من هذا العطاء المقرون بتلك المقاصد «وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى » .

لقد انتقل التوحيد من دائرة ضيقة إلى دائرة تشمل صوراً شتى من السلوك البشرى ،

ترتبط بوجه الله فى الأخذ والعطاء ، وتتجاوز التصرفات المالية إلى تصرفات أخرى قد تكون التنازل عن الحياة كلها فى لحظة فداء وصدق ، كما يقول أحد أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم :

وذلك فى ذات الإله وإن يشأ   يبارك على أوصال شلو مُمَزع

إن النهج الذى سار فيه صاحب الرسالة العظمى يقوم على تغيير حقيق فى النفس البشرية يتناول البواعث والغايات كلها .. هكذا أخرج قومه من الظلمات إلى النور .

ولن يكون لنا نور نمشى به فى الناس إلا إذا سلكنا هذا الدرب نفسه وتحملنا برجولة صعوبات الطريق .

التشريع بين مكة والمدينة

القرآن الذى نزل بمكة كالقرآن الذى نزل بالمدينة فى أثره وإعجازه ومكانته وبنائه للرسالة ! ولم يختلق فروقا بينهما إلا نفر من جهال المستشرقين ومن لف لفهم من سماسرة الاستعمار الثقافى . فإن هؤلاء الناس يرون أن القرآن من كلام البشر وأن البيئات التى نزل فيها تركت طابعها عليه ! ! .

والزعم بأن القرآن من وضع محمد بدأ به عباد الأصنام ، وتبناه فى عصرنا هذا كذبة المبشرين والمستشرقين كما ذكرنا ، ثم مضوا فى إفكهم يقولون : إن القرآن المكى عاطفى لا عقلى وإنه لا علاقة له بالتشريع ، وأنه .. وأنه .. إلخ ...

ولم أر أوغل فى الكذب من هذه التخرصات ، فإن العقل الإنسانى النائم استيقظ على صوت الوحى النازل بمكة يهتف بالبشر «قل : إنما أعظكم بواحدة ، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ... » ويسائل الخلق كافة «من يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض ؟ أإله مع الله ؟ قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » ويقرر حقيقة التوحيد على هذا النحو «ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق ! ولعلا بعضهم على بعض » .

هل هذه إشارات عاطفية بعيدة عن المنطق العقلى ؟ أم هذه يقظات عقلية عارمة تطارد التقليد الأعمى والاسترسال الشارد الذاهل .. ؟.

إن الكتب التى يحملها خصوم الإسلام بين أيديهم ، ليس فيها لفظ يبلغ هذا المستوى من التألق الفكرى والارتقاء الإنسانى . والقرآن الذى نزل بمكة أوائل الرسالة كان دعوة إلى الذكاء والاستقراء وسداد الحكم وإطراح التعصب وعشق الحق وحده ، ومنه قوله تعالى : «أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ... » ؟

هل توجيه الأنظار على هذا النحو الشامل النازل فى مكة يدل على أنه قرآن عاطفى؟.

إن القرآن كله مكيه ومدنيه سواء فى تحريك العقل وتصويب الفكر ! لكن «البروفسير» «تأبط شرا» يقول فى أيامنا هذه: لا إله والحياة مادة! أو يقول: إن هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع ! أو يقول : إن العالم قطاع عام تحكمه أسرة مقدسة ! أو يقول : إن القرآن كتاب بشرى تبدو فيه خصائص البيئة العربية الأولى .. «وتأبط شرا» الجديد ليس أغبى ولا أذكى من «تأبط شرا» الغابر، وإنما الغباء الحقيقى فيمن يصدقه ويستمع إليه، والجنون فنون ! .

وهذا وهم آخر لم يكن بمكة تشريع ! التشريع بدأ بعد الهجرة ، أما قبل الهجرة فقد كان الإسلام فى مرحلة وعظ وإرشاد ..

ونقول جازمين إن شرائع العقيدة والأخلاق والقيم الرفيعة والسير الطاهرة وأغلب الطاعات التوقيفية نزلت بمكة المكرمة . فالوصايا العشر التى يهتم المربون والمفسرون بها ، جاءت فى ثلاث آيات من سورة الأنعام المكية بدءا من قوله تعالى «قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ... » ثم اتسعت دائرة الحكمة والتوجيه فى خمس عشرة آية جاءت فى سورة الإسراء المكية بدءا من قوله تعالى «وقضى ربك ألاّ تعبدوا إلا إياه ... » والصلوات الخمس التى نقيمها اليوم شرعت فى مكة ، ليلة الإسراء .

والزكاة فرضها الله فى مكة . ففى سورة «فصلت» ــ وهى من أوائل ما نزل بمكة ــ يقول جل شأنه «وويل للمشركين . الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون» .

وفى زكاة الزروع نزل قوله تعالى «وآتوا حقه يوم حصاده» من سورة الأنعام المكية . والحج ميراث من شريعة إبراهيم .

وعالمية الرسالة الإسلامية تقررت فى عشر آيات نزلت كلها بمكة . وفى القرآن المكى خطاب لأبناء آدم كلهم يتضمن وصايا هى لباب الملة ! وعتها سورة الأعراف .

إن الزعم بأن مكة لم ينزل بها تشريع جهل فاضح ! إن دعائم التشريع قامت فى مكة ثم علا الصرح فى المدينة ، وتناول أحوال المجتمع الدقيقة ومتطلبات الدولة الصاعدة ، والجهاد المادى والأدبى لأعداء الإسلام الناقمين منه !

وجماعات المبشرين والمستشرقين يروجون لفكرة انعدام التشريع فى مكة ليقولوا إن الرسول استفاد من أهل الكتاب المجاورين له فى المدينة ! ماذا استفاد منهم ؟ وما الذى نقله عنهم ؟ .

إن محمدا لو أخذ من أهل الكتاب شيئا لفسد دينه ولسرى العوج فى كتابه ، ولنفذ فيه قوله تعالى : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين » .

إن الأذان شرع فى المدينة نداء لصلاة شرعت فى مكة ، والجهاد العسكرى شرع فى المدينة دفاعا عن عقائد حوربت فى مكة وفى غيرها ...

وطبيعة التشريع تتبع ظروف الدعوة والدولة ، والوحى الإلهى واحد هنا وهناك .

الذين يخونون الأمانات

رأيت رجلا يلى منصبا كبيرا ترتبط به مصالح مهمة ، ومع خطورة ما أسند إليه كان لا يفعل خيرا ولا يحجز شرا ولا يفهم من وظيفته إلا أن ينظر إلى الناس من فوق ! فبسطت لسانى فيه بالقدح وحكمت عليه بقسوة ..

لكن أحد السامعين قال : إننى أراه يتردد على المسجد أحيانا ! فسارعت إلى توكيد حكمى وذكرت الحديث المعروف «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له » فقال لى السامع : ما علاقة الحديث بتقصير الرجل فى منصبه ؟ قلت : إننا معشر المسلمين لا نعرف معنى العقد أو العهد ، ولا نعرف معنى الأمانة ! ويتبع ذلك أننا لا نرعى ما جعله الله من حقيقة الإيمان ، ولوازمه اللاصقة به ، ولاننزل عند قوله جلّ شأنه «والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » .

إن الوظيفة عقد بين الدولة ـ أو أية مؤسسة ـ وبين شخص ما ليقوم بعمل محدد ، لقاء مرتب مقدور يصرف له .

فهو لا يستحق راتبه شرعا إلا إذا قام بالعمل المنوط بعنقه ! فبم يستبيح أخذه إذا كان لا يؤدى واجبه ؟ وإذا كان الشخص متكاسلا ، ضائقا بالناس ، كارها لخدمتهم ، مفرطا فى حقوقهم ، كل مايعرفه من وظيفته الاستطالة على الجمهور والتجهم فى وجهه ، فهو امرؤ غادر ، ناقض للعقد يأكل سحتا ، وكل لحم ينبت على سحت فالنار أولى به ! .

إن ما يسمى «بالبيروقراطية » القاتلة للمشروعات الكبيرة المضيعة للمصالح الحساسة ليس إلاّ هذه السيرة الخائنة لبعض الموظفين المفرطين البلداء .

وقد سمى نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ الوظائف أمانات وطلب من الأقوياء التيقظ لها ، وطلب من الضعفاء ألاّ يطلبوها أو يتعرضوا لها .. ونبه إلى المسئوليات الجسام التى تترتب

عليها فى الدنيا والآخرة ، وأبعد عنها عمه حمزة بن عبد المطلب ، وصاحبه أبا ذر رضى الله عنهما ، وقال : «ليوشكن رجل أن يتمنى أنه خرّ من الثريا ولم يل من أمر الناس شيئا » ! !

إن المناصب كبيرها وصغيرها ليست وسيلة ترفّع أو ترفيه لبعض الناس ! إنها كيان دولة ، وحاضر أمة ومستقبلها ، فمن ولّى عملا وخان فيه ، فهو من السراق والنهابين ، وهو نكبة للدنيا والدين .

الرأى الآخر فى الإسلام

للرأى الآخر مكان عريض فى ثقافتنا الإسلامية ، تراه واضحا فى علم الكلام وفى الفقه المقارن وفى علم الملل والنحل ! وذكر الرأى الآخر ومناقشته والرد على أصحابه بدأ فى القرآن الكريم نفسه .

وإنك لترى فى مواضع متقاربة من سورة الفرقان قوله تعالى : «وقال الذين كفروا : إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون .. » «وقالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ... » ؟ «وقال الذين كفروا : لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ... !! » .

وأنا أحب أن أسمع الآراء الأخرى التى تخالفنى ، وأتأنى فى دراستها ، وقد أعتذر لأخطاء أصحابها مع اعتراضى الممتدّ عليها !! .

خصوصا إذا كانوا من أديان أخرى ، ذلك لأن البشر عادة يتوارثون عقائدهم من بين مايتوارثون من شئون مادية أو أدبية ! وقد يربطون بها كرامتهم الشخصية ومكانتهم الاجتماعية ! فزحزحتهم عنها لاتتم بالصياح والمعاندة .

وقد تحدثت يوما مع واحد من علماء أهل الكتاب أراد إحياء المجادلات القديمة ، وترديد ما قالوا وقلنا خلال العصور الماضية ، فرأيت أن أمضى به فى نهج آخر أقرب إلى طبيعتى النفسية ، ولعله أقرب إلى طبيعة العصر الذى نعيش فيه ...

قلت له : إننى أعتمد على العقل وحده فى بناء اليقين ! فى الأرض الآن خمسة مليارات من البشر ، أى عشرة مليارات عين وعشرة مليارات أذن وعشرة مليارات كلية ، وما لا يحصى من الخلايا والأعصاب ! فإذا تجاوزت أجساد البشر إلى آماد الكون والفضاء الرحب الذى تسبح فيه كواكب نبصر منها القليل ونعجز عن الكثير .... إن الإشراف على

هذا العالم العجيب الرهيب لايقدر عليه إلا إله ليس كمثله شيء .. ! .

قال : هذا صحيح ، قلت : فأقرب الأديان إلى القبول أدقّها وصفا للكمال الإلٓهى قال : لا بأس ! قلت : عندما سأل فرعون موسى عن الله قال ـ فى رواية القرآن ـ « ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . قال : فما بال القرون الأولى ؟ قال : علمها عند ربى فى كتاب لا يضلّ ربى ولا ينسى » .

هذا حديث القرآن عن الله فى كتاب محمد ، أما حديث التوراة عن الله كما نسبتم إلى موسى فنسق آخر ، إن الله ندم على إغراق الأرض بالطوفان ، وحتى لا يتكرر منه هذا الخطأ صنع موسى قوس قزح حتى يتذكر فلا يغرق الأرض مرة أخرى وهو ذاهل ...

إننى بالعقل وحده أومن بالله العظيم ، فبأى عقل أترك تراث محمد فى تنزيه الله ثم أمضى معكم فى قبول ألوهية لا تعرف عواقب ما تفعل ؟

لقد سقت لك مثالا خفيفا جدا مما أعرف عندكم ، ولديكم عظائم تشيب لها النواصى أوثر السكوت عنها ! ! .

ليتنا نتعلم

لكل حضارة هناتٌ تحسب عليها وقد تخدش مكانتها ! ربما ظهرت الهنات كما تظهر الحشائش الطفيلية وسط الحقول والحدائق ، ما يستنبتها أحد ، وما تكاد تظهر حتى تجتث ! .

ولآحاد الناس كذلك أخطاء ومثالب تنهض إلى جانب خواصهم العظيمة ووظائفهم المجدية ، فهذا مهندس عبقرى ولكنه يلعب الورق ! وهذا تاجر ناجح ولكنه يكثر التدخين ! وهذا صحافى لامع ولكنه يستبيح المجون ..

والأمم والأفراد تقوم أولا بدعائمها المادية والأدبية وآثارها العلمية والعملية ، وقد يغطى ذلك على هناتها أو يجعل أخطاءها خفيفة الضّر .

والحضارة الأوربية الحديثة من هذا القبيل ، لها مباذلها التى تحطّ من قدرها ، ولها قبل ذلك وبعده إنتاج صناعى ، وتنظيم إدارى يردّان البصر وهو حسير..

وأغرب ما رأيته من قومى عفا الله عنهم أنهم يرمقون المسارح أكثر مما يرمقون المصانع والمعاهد ، ويستجلبون أدوات الزينة قبل أن يستجلبوا مقومات الحياة .. ويعرضون تسريحة المرأة الأوربية لشعرها قبل أن يعرضوا ألوان الآداب والمعارف التى حصلت عليها المرأة ورفعت مستواها ..

فى حصار المخيمات الفلسطينية المخزى قرأتُ نبأ طبيبة انجليزية حبست نفسها مع المرضى والجياع حتى جاء الفرج بعد لأى ، وخرجت من جوف المأساة لتحكى ما واجهت من آلام وما أسدت من جميل دون مَنٍّ ولا أذى ، فقلت : ليتنا نتعلم ! .

وفيما أنا أفكر وأجتر الذكريات جاءنى نبأ من الأرض المحتلّة أن هناك مسابقة بين الفتيات الفسلطينيات لاختيار ملكة جمال فلسطين المحتلة ! ! ، وسرَّنى أن خطباء الجمعة فى الضفة الغربية وقطاع غزة هاجموا المحاولة الخسيسة وقتلوها فى مهدها ! قلت : أدَّى

علماء المساجد واجبهم .. ويبقى شيء لابدَّ من تقريره ! :

إن هناك أشخاصا يمشون فى سراديب الحضارة المعاصرة كما تمشى الكلاب والفئران فى الظلام لا تعرف إلا الفضلات والفضول .. سمعت أحدهم يصيح نحن بحاجة إلى نهضة مسرحية ! وآخر يقول : يجب اعتناق المادية الجدلية ! وآخر يقول : نشطوا الألعاب الرياضية ، وسمعت دابة تشتغل للأسف بالسياسة العامة تقول : لنترك ماضينا كله .

نتركه ونتبع ماذا ؟ أيها الحيوان الأنيق ؟.

لأننا نعمل بنصف وعى

شكا لى أحد رجال الصناعة من إقبال الجمهور على السلع الأجنبية ، وزهده فى مثيلاتها من الإنتاج الوطنى وقال : إن المستقبل لا يطمئن مع هذا المسلك ! .

قلت له : أحسب أن التفوق الصناعى وليد التفوق الأخلاق ، ولو أننا نهضنا بأخلاقنا لجاد ما نصنع ولأقبل الناس عليه ، وقد يغضون الطرف عن بعض التفاوت ! .

فردّ الرجل بأن سبق الأجانب يعود إلى خبرات مادية وقدرات دعمها الزمن ، وأن إقحام الأخلاق هنا أمر مستبعد ! .

فعدت إلى توكيد رأيى عائبا على العرب والمسلمين بإجمال أنهم يباشرون أعمالهم بنصف وعى ونصف جدّ ، وأن الرغبة فى الإكمال والتجويد قد تكون شهوة عند غيرهم يندفعون إليها بشوق وحماس ، أما عندنا فإن الإتقان قد يكون واجبا مُمْلىً من الخارج أو تكليفا شاقا نساق إليه سوقا ، وهذا الجو لا يجود فيه شىء ، ولا نكسب فيه سباقا ..

إننى قد أطالب الحكومات بأن تفرض ضرائب ثقيلة على السلع المستوردة إلى أن تستطيع سلعنا الاستواء على قدمها والفوز فى المنافسات الحرة ، لكننى أرفض أن يتم ذلك حماية للكسالى والمفرطين الذين لا يبالون بما تصنع أيديهم أهو محكم أم هو مختل ؟ أهو مستقيم أم هو معوج ..؟ .

قال : إننى أنظر إلى بعض الصناعات التجميعية عندنا فأدهش لأن ضمّ هذا إلى ذاك تمّ على صورة حسنة هناك وتم على صورة رديئة هنا ! لماذا ؟ قلت : إننا نعمل بنصف وعى ، الهمة فاترة والعزيمة خائرة

ضم إلى ذلك إدارات تائهة سائبة ، يخرج الرجل من بيته إلى مكتبه فيصل وهو يشعر كأن أمرا مهما نسيه ، إنه لم ينس شيئا ما كل ما هنالك أن صلته بعمله ثانوية ،

يشغله عنها وَهْمٌ غير محدد ، ومن ثم فهو يتعامل مع الأشخاص والأشياء ببلاهة وكبرياء ..

إن الدين يدخل النفس البشرية ليحرِّك المفاتيح التى تضيئها من الداخل ، وليحرك الأجهزة التى تنطلق بها فى دروب الحياة على بصيرة ..

والذين يعيشون فى غيبوبة وذهول لا تهيج فيهم إلا غرائز الحياة البهيمية ليسوا من الله فى شىء ، وهم أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله .

لكي يقف سيل هزائمنا

يسيء المسلمون إلى أنفسهم أكثر مما يسيء إليهم أعداؤهم ! وفى أحيان كثيرة ينطبق عليهم ما انطبق على اليهود قديما أنهم «يخربون بيوتهم بأيديهم» أو أنهم «كالتى نقضت غزلها من بعد قوة»

فى «تشاد» أَسَّسَتْ الصليبية العالمية قاعدة صلبة لها ، ينعم فيها الزنوج المتنصرون بالسلام والاستقرار والنماء الأدبى والمادى ! أما المسلمون فى الشمال فمن عشرين عاما والحروب تشتعل بينهم ، وتوهن قواهم ، وتنشر الخراب فى ربوعهم !

وفى السودان تعاونت كنائس أسكانديناوة مع الفاتيكان مع كندا والولايات المتحدة على تنصير الجنوب ، وإنشاء جسور تعبر منها النصرانية إلى وسط أفريقية كله ، ولا يزال عرب الشمال ممزقى الشمل مفرقى الكلمة تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ! ! .

وبين إيران والعراق حرب مجنونة حصدت الأخضر واليابس ، وآذت البرىء والمريب ، لوأن معشار الضحايا فيها بذل لتحرير فلسطين ما بقى من العرب لاجئ ولاضاع لهم حق ! ومع ذلك فإن الرحى الفاجرة ما تزال تدور ، والمغارم الموجعة تتضاعف .. وقد قبضت مصانع السلاح فى أوربا وأمريكا وآسيا مئات المليارات ثمن ما بعثت به من أدوات الدمار فى البر والبحر والجوّ فكيف تصنع أمتنا هذا كله بنفسها ؟ وكيف تعمى عن دينها ودنياها بهذا المسلك المنكر؟.

معروف أن العالم الإسلامى يتدحرج من قرنين أو ثلاثة ، وأنه يعانى من هزائم ثقافية وسياسية وعسكرية ، وأنه ـ لكى يوقف سيل هذه الهزائم ـ يجب أن يراجع نفسه ويسدِّد خطوه ويصطلح مع ربه ويدع المعاصى الاجتماعية والشخصية التى أزرت به ...

لكننا لم نفعل ، ففى أيام السلام كنا نركض فى ميادين الشهوات ننفق القناطير

المقنطرة فى ملذات البطون والفروج وفى عماية من نسيان الله ذهبت أيام السلام بأوزارها وجاءت أيام الحروب بعارها ونارها وها هى ذى أيدينا تكاد تصفر مما أفاء الله علينا ، لقد أضعناه فيما يضر ولا ينفع ، فيما يخفض ولا يرفع ، وهذا هو الانتحار الجماعى الماحق ! .

إن نهاية العرب معروفة إذا ظلوا متنكرين للإسلام ، رافضين الانتماء إليه ، زاهدين فى حمل رسالته «ألم نهلك الأولين. ثم نتبعهم الآخرين كذلك نفعل بالمجرمين» .

أما إذا غيّروا ما بأنفسهم ، واحتموا بعقائدهم وشرائعهم ، وجددوا سيرة سلفهم فسيداوى الله جراحهم ويلمّ شعثهم ويؤتيهم خيرا مما أخذ منهم .

إذا لم تعد للدين مكانته

إذا لم تعد للدين مكانته فى تطييب الخواطر وتهدئة النفوس فسيبقى الناس متدابرين متحاقرين لا يجمع شملهم شيء ، ويؤسفنى أن نَقَلَةَ الإصلاح عن أوربا لا يعرفون هذه الحقيقة .. حدث أيام عبد الناصر أن صدرت قوانين بتخفيض إيجارات المساكن فقد فيها المالك ثلاثة أخماس ماكان يأخذه من المستأجر ، وقد حزن لذلك الملاك وفرح المستأجرون وتحوّلت العلاقات القديمة إلى جفاء وغضب ..

لكنى أعرف أحد علماء الأزهر الأتقياء ، وكان يقيم فى مسكنه بالإيجار ذهب إلى صاحب البيت بالأجرة القديمة وكأنه لم يصدر بتخفيضها قانون ، ودهش المالك وخشى أن يخالف القانون الثورىّ بيد أن العالم الورع اتفق معه شفويا على استدامة الوضع الذى كان ، رافضا أكل أموال الناس بالباطل .. ! .

ومضى القانون فى مجراه ، ونما على مرّ الأيام فتجمدت القيمة المفروضة ، ثم تقرر أن يورث العقد ، وأن يحل الأولاد محل الآباء والأجداد .. أى أن عقد الإيجار تحوّل إلى عقد ملكية مُقَنَّعة ! ! .

ونشأ عن ذلك أن أحجم الملاك عن التأجير ، فاختفى هذا النوع من المعاملات مع الحاجة إليه ، وتوجد الآن مئات الألوف من المساكن المغلقة على فراغ ، لأن المالك لا يريد أن يفقد ماله على نحو جائر ..

إن التظالم بين الناس لا يجوز ، ومن العبث أن تحل مشكلة بصنع مشكلة أخرى ، أو أن تعز طبقة بإذلال طبقة أخرى ..

إن بعض الحكام يتصرف بدوافع الحقد فيعمى عن طريق المصلحة ، ويُعجب بفلسفة مستوردة فيطمس بها حدود الله ومعالم الدين ، ولا يبالى بما يقع بعد ، وقد رأيت أن جماهير من العمال والفلاحين أمست تجتاح حقوق غيرها بدل أن تقنع بحقوقها ،

وأن عواطف القناعة والرضا تبخرت لتحل مَحَلَّها مشاعر الاستئثار والجشع وهضم الغير...

يمكن عن طريق التشريع محاربة الاحتكار ، وتقليم أظافر الباغين ، لكن ذلك يتم فى المحل الثانى ! أما المحل الأول فهو تنمية الإيمان وإشاعة أخلاقه وتقاليده .

إن الاستعمار الثقافى استبعد أثر العقيدة والصلاة فى كل إصلاح ، بل إنه يطارد التديُّن ويفترى على أصوله ورجاله ، ويستحيل أن تحقق أمتنا خيرا ما بقى هذا الافتيات .

خواطر متناثرة فى قضايا المرأة .

النهضة النسائية الحقة

أنا وغيرى من المخلصين مشغولون بالنهضة النسائية المعاصرة ، نفرح لاستقامتها ونأسى لعوجها، ونتفرس فيما تنقله عن الحضارة الحديثة كى نميز الخبيث من الطيب، ونضمن مستقبلا طهورا وضيئا لأمتنا كلها ..

إننى أعترف بأن المرأة لم تعامل بتعاليم الإسلام خلال قرون مضت ! لقد فرضت عليها الأمية وحظرت عليها المساجد ، وأقصيت إقصاء حاسما عن ميادين الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقطعت صلاتها بشئون الإسلام الحضارية والسياسية والعسكرية ، بل مسّها الضيم فى شئونها الخاصة وأمست لا تحسن إلا الخدمة البيتية والغرائز البدنية ..

واتسعت مسافة البعد الروحى والعقلى بينها وبين النساء فى سلفنا الأول كما تتسع المسافة بين الإنسان والحيوان ..

وشاء الله أن يدفع المسلمون جميعا ثمن هذه الخيانة لمبادئ الإسلام فاحتلت أرضهم وأدمغتهم وأفئدتهم ، وبعد أن كانوا طليعة هادية أو عالما أول أصبحوا قافلة تتبع غيرها ، أو عالما ثالثا يقاد ولا يقود ..

ومن حق النساء أن يسعين نحو عالم أفضل ولكن سوء التقليد ورّط النهضة النسائية فى هنّات تحتاج إلى التحذير ، إن المرأة الأوربية شاركت الرجل فى جميع فنون المعرفة ، واتسعت آفاق الجنسين على سواء ، ووجد من النساء من تصبّب عرقها وهى تستكمل شخصيتها العقلية والأدبية .. وفى ميدان الدين رأيت بعينى نسوة فى الجزائر يخدمن عقائدهن ببأس واستماتة ! .

فلما نظرت إلى المرأة الحديثة عندنا وجدت التقليد فى عرى الرأس لا فى امتلائه بالمعرفة ، وفى ارتداء الثياب الفرنجية المخصصة للصباح أو المساء ! وفى الحرص على

أدوات الزينة . وفى التجهم لتعاليم الدين ، وقلّ من تكترث بصلاتها أو تهتم بقضايا أمتها الثقافية والسياسية ... وللحضارة المنتصرة مباذلها المخوفة ، وهى مباذل يكسر حدتها التقدم العلمى الهائل هناك . بيد أننا نجحنا فى نقل هذه المباذل إلى جانب التخلف المحزن السائد بيننا فتضاعفت الأخطار .

ولست أحب أن أسمع للمتشائمين ولا أن أتابع المتهورين . ! إننى وقّاف عند تعاليم دينى كما عرفتها من كتاب ربى وسنن رسولى لا كما صورتها عصور الاضمحلال أو أهواء الرجال ! .

وما أكثر القضايا التى انحرفنا فيها عن منهاج الكتاب والسنة ، فإذا نحن اجتماعيا وسياسيا نتراجع وتنتقص أطرافنا . حتى كاد الانتقاص فى هذا العصر يأتى على حقيقتنا ، ولعل قضايا المرأة ورسالتها فى الحياة من أهم هذه القضايا .

شائعة مكذوبة !

الفتوى الشائعة بين بعض المسلمين والمتناقلة بين خصوم الإسلام أن الإسلام يقيم أسوارا عالية بين الجنسين حتى لا يرى أحدهما الآخر ، فالرؤية المجردة محرمة ! .

وقد رجعت إلى القرآن الكريم والسنن المتواترة والصحيحة فوجدت أن هذه الشائعة مكذوبة وأن الرؤية العادية لا شيء فيها ، وإنما المرفوض هو الرؤية الجريئة الوضيعة التى تبحث عن الإثم ! ومن ثم أمر الدين بغض البصر ، أمر بذلك الرجال والنساء على السواء ، فإذا حدث أن وقع البصر على شيء يثير ، وجب على المسلم ألاّ يعاود النظر ، وأن يحصن ضميره من الريبة وشتى الوساوس .

فالمسجد والشارع وأرجاء المجتمع يوجد فيها الجنسان تحكمها هذه الآداب : عدم التبرج والإثارة ، غض البصر والتزام العفة ، انشغال كل مسلم ومسلمة بالأغراض المشروعة التى خرج من أجلها ..

وقد تواتر ذلك فى حياة السلف الأول فرئيت المرأة فى المسجد، بل تبعت الجيوش المقاتلة ، يحيط بها سياج من آداب الإسلام المقررة .

وأعرف أن هناك آثارا واهية نبذها أصحاب الدقة العلمية فى تمحيص المرويات ، ولم يذكرها عالم يروى الصحاح ، ولا احترمها فقيه ينقل حقائق الإسلام ، مثل ماروى عن فاطمة أن المرأة لا ترى رجلا ولا يراها رجل ، ومثل حديث منع الرسول بعض نسائه أن يرين عبد الله بن أم مكتوم ! وتلك كلها أخبار لا تساوى الحبر الذى كتبت به ، وهى ظاهرة التناقض مع مقررات الكتاب والسنة المقطوع بثبوتها ودلالتها .

ولكن هذه المرويات المنكرة من الناحية العلمية هى التى صنعت الفكر الإسلامى فى العصور الأخيرة ، وفرضت الأمية والتخلف لا على المرأة وحدها ، بل على نظام الأسرة وكيان المجتمع وطبيعة التشريع .

ووجد من خطباء المساجد من يقول : المرأة لا تخرج من بيتها إلا إلى الزوج أو إلى القبر ! .

ومن أيام جاءتنى امرأة ثاكلة تقول : إن فؤادها يحترق من الحزن ، وإنها تريد أن تزور قبر ابنها .. قلت لها : ولماذا لم تزوريه ؟ قالت : إن إمام المسجد ذكر أن اللعنة تنزل على من يفعل ذلك ! قلت لها : زورى قبر ابنك وأنت محتسبة صابرة ، ثم عودى إلى بيتك وأنت مسلمة بقضاء الله ، ولك الأجر إن شاء الله ، إن النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيما روى البخارى ـ لم ينه عن هذه الزيارة ، ولا لام صاحبتها .

إن هناك عقولا معتلة ، تتعشق الآثار المعتلة ، وتبنى عليها ما تهوى من أحكام والإسلام النقى برىء من هذه الانحرافات ..

إننا فى عصر شاركت المرأة الرجل غزو الفضاء فلا يجوز أن نترك القاصرين يثيرون على ديننا التهم ، وينقلون إلى الناس ما فى نفوسهم من علل .

لهن مثل الذى عليهن

شرف الأمة أن تحكمها تقاليد النبل أكثر مما تحكمها قوانين القمع . إن سلطان الأخلاق أجدى وأرحب من سلطان الدولة ، والمنعة الحقيقية للأمم هى فى سيادة الهدى والتقى والعفاف والغنى ـ الاكتفاء والرضا ـ وقد عين عمر بن الخطاب قاضيا أيام أبى بكر ، فظل سنة كاملة لا يأتيه خصم ، لأن الناس أنصفوا من أنفسهم ، وقديما قيل : إذا أنصف الناس استراح القاضى ! .

وأذكر أن رجلا قال لعمر : أريد أن أطلق امرأتى ! قال له عمر : لم ؟ قال : لأنى لا أحبها ! قال عمر : أوكل البيوت بنى على الحب ؟ فأين التذمم والوفاء ؟ والواقع أن الأخلاق وحدها هى التى تقوم عليها البيوت ، وأن سياط القانون أفشل شىء فى إقامة علاقات أسرية سليمة .. وفى الحديث «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائهم» وفى رواية «إن من أكمل المؤمنين أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله» . وكما أوصى الإسلام الرجل بامرأته ، أوصى المرأة بزوجها ، وجعله جنتها أو نارها حسب معاملتها له ....

غير أن بيوتا كثيرة فقدت روح الدين وتعاملت بطباع الحيوان أكثر مما تعاشرت بخلائق الإيمان ، فهى تتنفس فى جو من الشراسة والنكر ، ولست أدرى أين فى جنباتها مكان المودة والرحمة ...

لقيتنى فى المسجد زوجة تجن من الغيط ، تقول : إن زوجها ضربها ضربا مبرحا ، وأحسست أنها سوف تبيع الدين والدنيا معا لتتركه .. ولقيت الرجل وسألته معاتبا فإذا هو يجيبنى : إنى أؤدبها لأنها تكثر من مراجعتى ! قلت له : ليس لك هذا . إن الضرب ما يقبل إلا إذا نشزت المرأة واستكبرت على زوجها واحتقرت رغبته وتركته وكأنه بلا صاحبة ! وحالة أخرى : أن تأذن فى بيته لمن يكره دخوله فإن من حقه أن يغار ، وألا

يرى فراشه أجنبى ! أما الضرب خبط عشواء ، فهذه حيوانية وليس يجوز للرجل أن يكون مع زوجته وحشا ولا قبيحا .. ؟ .

إن الإسلام جعل الرجل قيما على بيته ، وجعل الحقوق والواجبات قسمة متبادلة بين الزوجين ، «لهن مثل الذى عليهن بالمعروف» . وأعرف أن من النفوس حرائر وإماء وأن من الرجال والنساء من يستجيب للعنف أكثر مما يستجيب للطف ! .

لكن شيئا من هذا لا يبيح لنا أن نظلم الإسلام أو نسلك مسالك تجر عليه التهم ، وتجعل البعض يقول : إنه يهين الأنوثة ويجرح كرامتها ويستبيح الخشونة معها .

حدود الله فى البيت

لكى يبقى البشر على ظهر الأرض، ذكرانا كانوا أم إناثا لابد من أمرين : الطعام والزواج . فالأكل لحفظ الحياة ، والزواج لاستدامتها .

وهناك مخلوقات أخرى تعيش بهذين الأمرين على نحو مّا ، إلا أن الله عز وجلّ كرّم بنى آدم فجعل طعامهم من الحلال الطيب ، وجعل تواصل بقائهم فى لقاء شريف محترم !.

إن الدواب تأكل ما تجد ، أما البشر فقد رفع الله مستواهم وقال لهم « يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا .. » والحيوانات تتكاثر بضروب من السفاد المرئى أو المستور ، أما البشر فقد جعل الله لهم الزواج سكينة ورحمة ونماء ، ونسبا وصهرا « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات » ..

وكما رفض الإسلام الأكل من سحت حرّم التسول الجنسى ، وحرم كل لقاء يتم فى غيبة الإيمان .

ولا شك أن الإسلام عندما رفض الرهبانية كان أقرب إلى سلامة الفطرة وأعرف بحق الحياة من الأديان التى ظنت الرهبانية قربى إلى الله ! إن الله لا يتقرب إليه بتخريب الوجود ، وانتهاء الحياة فى جسد رجل أو امرأة !.

لكن ما الحياة التى ينشدها الدين من الزواج ؟ هل هى زيادة الإنتاج الحيوانى وتكثير أعداد السكان ؟ كلا إن الزواج كما شرحه القرآن تعاون بين الزوجين على أن يقيما حدود الله ، وهذا هو السّر فى قوله تعالى معالجا مشكلات البيت «ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ، فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به» .

وأحسن وصف لحدود الله قول الرسول الكريم : «ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرا من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرته وإن أقسم عليها أبرته ، وإن غاب عنها حفظته فى نفسها وماله» .

والبيت المسلم فى هذا النطاق محضن لتربية الأولاد كما هو مستقر للزوج يستجم فيه من وعثاء الكدح ومشقات الدنيا . والمسلمون للأسف لا يعرفون كيف يقيمون حدود الله فى البيت ، ذلك أنهم من زمان بعيد تواصوا بتجهيل المرأة وتوارثوا ازدراء الأنوثة ، وظنوا وظيفة المرأة طهو الطعام وإجابة الشهوة وتسمين الأطفال ، وحسبها هذا ! .

والانهيار العلمى والروحى الذى أصاب العالم الإسلامى ، ثم أصاب العالم كله بعد ذلك يعود إلى النظرة الحيوانية المجردة لوظيفة المرأة فى المجتمعات الإنسانية ، واعتبار العلاقة بين الجنسين الأكل والسفاد .

الوجود النسائى فى المساجد

مازلت أحذر من أثر الأحاديث الضعيفة فى الميدان التربوى والاجتماعى ، وكذلك من الأفهام المعوجة للأحاديث الصحاح ، ودييننا ولله الحمد محفوظ يذود عنه الراسخون فى العلم هنا وهناك .

قرأت حديثا عن أبى الدرداء «من قال إذا أصبح وإذا أمسى: حسبى الله لاإله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ، سبع مرات ، كفاه الله ما أهمه صادقا كان أو كاذبا»!. رواه أبو داود موقوفا، وابن السنى مرفوعا، وقال المنذرى: مثله لايقال من قبيل الرأى فسبيله سبيل المرفوع ، وقال الشارح : إن الكاذب يقبل دعاؤه ببركة هذه الكلمات ! .ونحن نرفض هذه المجازفات ، فالرواية باطلة سواء كان الحديث موقوفا أو مرفوعا ، وتسوية الكاذب بالصادق ضرب من الخبال ، وإذا لم يكن ذلك علة قادحة فى قبول المتن فما تكون العلل ؟ .

ولكن بعض المشتغلين بالسنة يفقد ملكة الفقه الدقيق ، فتمر به الترهات وهو غير فطن لها . ومن ذلك ما ورد فى السنن «أن أحب صلاة المرأة إلى الله فى أشد مكان فى بيتها ظلمة» حتى أن بعضهم فضل ذلك على صلاة المرأة فى المسجد النبوى ....

وقد رد ابن حزم هذه المرويات كلها وحكم بكذبها . ولست من أتباع المذهب الظاهرى، ولكنى أعلم علم اليقين أن النبى عليه الصلاة والسلام نظم صفوف النساء فى مسجده الشريف، وجعل للنساء بابا خاصا بهن، ونهى الرجال أن يقتربوا من صفوف النساء بأن يتأخر بعضهم عن الصفوف الأولى ليكون قريبا من النساء وقال فى ذلك : «لايزال قوم يتأخرون عن الصف الأول حتى يؤخرهم الله فى النار» . وكان النساء يحضرن الجماعات كلها من الفجر إلى العشاء ، فإذا كان ذلك يخالف الفضل أو ينقص الأجر فلماذا تركهن النبىّ عليه الصلاة والسلام يتحملن هذه المعاناة ليلا ونهارا ؟ .

ولست مع ابن حزم فى أن النساء والرجال جميعا سواء فى سنة الجماعة ، والذى أراه أنّ المرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها ، فإذا احتاج الرجل والأولاد إلى إعداد طعام أو تهيئة راحة ، ظلت المرأة فى بيتها ولم يجز لها الذهاب إلى المسجد وترك البيت مهملا ضائعا ، ولها ثواب الجماعة التى تخلفت عنها لعذر شرعى ..

أما إذا قامت بأمانات البيت كلها ، فالأفضل لها أن تلحق بالمسجد ، وتشارك فى الجماعة ، وليس للرجل أن يمنعها ، كما جاء فى الحديث «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله» إن إلغاء الوجود النسائى فى المساجد محو لسنة عرفها عصر النبوة والخلافة الراشدة ، ولسنا أولى بالله من سلفنا الصالحين .

ليست الرجولة أشرف من الأنوثة

دخلت مكتبي فتاة يبدو عليها الضيق والغضب ، وقالت لى : أرجو أن تسمع شكاتى وتعمل على إنصافى ! إننى طالبة فى الجامعة من ثلاث سنين ، أنجح غالبا بدرجة الامتياز ، وكانت أمى تخدمنى أنا وإخوتى فى البيت ، وإخوتى طلاب فى الجامعة مثلى ، وينجحون غالبا بدرجة مقبول ، وحدث مالم نكن نتوقع فقد مرضت أمنا ولزمت الفراش ، والأخوة الآن يطلبون منى أن أخدمهم مكان أمهم ، وقد عرضت عليهم أن نتقاسم أعباء البيت جميعا بعد أن نعود من الجامعة ، فأبوا قائلين : أنت امرأة وعليك وحدك واجب الخدمة ! .

قلت : وما تطلبين منى ؟ قالت : تكتب لهم أن نتعاون ، وتذكر لهم أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان فى خدمة أهله ، وأنه كان يقوم فى البيت بأعمال يستنكف منها الآن بعض الرجال ، إن تكليفى بالأعمال المنزلية وحدى ظلم لى وأنا متقدمة فى دراستى وتدليل لهم وهم متخلفون عنى ! .

ولم أطق أن أسمع أكثر من هذا ، فجئت بورقة كتبت فيها حديث أم المؤمنين عائشة ، وأعطيتها إياها كى يقرأها الإخوة ! ! .

قال لى شخص كان يرقب الحوار : لم فعلت هذا ؟ أليس يقول الله تعالى : « وليس الذكر كالأنثى » ، يجب أن تخدم إخوتها وأن تلزم البيت وتترك الجامعة ! .

قلت : الآية التى ذكرتها بقية كلام لامرأة عمران التى كانت حاملا فنذرت مافى بطنها سادنا للمسجد ، وكانت تنتظره رجلا ، والرجل أقدر على إمامة الناس وإقامة الشعائر من المرأة ، فلما جاء المولود أنثى هى مريم الصديقة اعتذرت إلى الله عن الوفاء بنذرها قائلة : « رب إنى وضعتها أنثى ـ والله أعلم بما وضعت ـ وليس الذكر كالأنثى ،

وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » .

لقد طلبت من الله أن يحمى الفتاة التى جاءت على غير انتظار ، مادامت لن تستطيع توجيهها إلى سدانة بيت المقدس وإمامة المسجد الأقصى ! .

لكن الرجل قال لى : الذكورة على كل حال أشرف من الأنوثة ، وما يجوز لك أن تحرض الفتاة .. فقاطعته غير منتظر أن يتم حديثه وقلت له : تعنى أنك أفضل من مريم لأنك رجل وهى امرأة ؟ إن امرأة فرعون أرجح فى ميزان التقوى منك ، وإن كنت رجلا وكانت هى زوجة جبار من الدعاة إلى النار... لكنكم تجهلون حقائق الدين والدنيا .

صوت المرأة ليس عورة

كان شاب قريبا منى يكاد يتميز من الغيظ ، ونحن نستمع إلى بحث تلقيه إحدى السيدات . قلت له : مابك ؟ هل فى الكلام خطأ ؟ فرد على عجل : أتقرّ هذا ؟! أليس صوت المرأة عورة ؟ فأجبت فى برود : هذا كذب لا أصل له فى دين الله .

اسمع حكم الإسلام من كتاب الله ، يقول الله لأمهات المؤمنين إذا حدثن أحدا : « .. لاتخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض » فهل يصمتن فلا ينبسن ببنت شفة لأن الصوت عورة ؟ كلاّ «... وقلن قولا معروفا » أى ليكن الكلام طبيعيا ليست به نغمة مريبة ولا لحن مثير ! .

وعندما جاءت المؤمنات مهاجرات من مكة بعد عهد الحديبية عقد لهن امتحان شفوى لتعرف أحوالهن ، هل هن فارات بدينهن حقا ؟ أم لهن مآرب أخرى ، فإذا تبين من النقاش إيمانهن.قبلن فى المجتمع الإسلامى « فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار» ولم يدر بخلد أحد أن صوت المرأة عورة ؟ .

وعندما جاءت المجادلة تشرح لرسول الله صلى الله عليه وسلم قضيتها ، وتراجعه فى الحكم لم يقل لها اسكتى إن صوتك عورة ...

وعندما جاءت بنت شعيب ـ التى صارت زوجة لموسى فيما بعد ـ تقول له : « إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا » لم يقل لها موسى كيف تتحدثين معى هكذا وصوت المرأة عورة ؟

وعندما دخلت ملكة سبأ قصر سليمان ، وأراها العرش الذى استحضره من اليمن إلى القدس وسألها : « أهكذا عرشك ؟ قالت كأنه هو »! قال المفسرون : عرف من إجابتها

ذكاءها لأنها مع إحساسها بأنه عرشها استبعدت أن يطير آلاف الأميال لتلقاه هنا ! ولم يقل عالم ولا جاهل : إن صوتها عورة .

وعندما خرجت زينب بنت رسول الله على المسلمين فى المسجد وأعلنت أنها أجارت زوجها الذى أسره المسلمون فى بدر ، استمع الناس إلى الصوت الراجى المحزون ، وقال الرسول الكريم فى رقة : لم نتفق على هذا وإن شئتم رددتم إليها زوجها ولم يقل أحد : إن صوتها عورة ...

إننى أكره من أعماق فؤادى علاقة المرأة بالرجل فى الحضارة المادية التى أقامها الغرب ـ الصليبى والشيوعى ـ بيد أن هذه الحضارة سوف تبقى بأرجاسها وأدرانها مابقى المتحدثون عن الإسلام يقدمونه بهذا الجهل والعمى ! .

إن صوت المرأة ليس عورة ، العورة هى فى هذا التفكير الذى لاسناد له ، والذى يصرخ به شباب جهول ، باسم الإسلام المظلوم .

التعدد عندنا : ماذا عندهم ؟ !

سمعت فتاة تهاجم الإسلام فى حفل كبير ، وتصف تعدد الزوجات بأنه بغاء ! .

وقلت للحفل المستمع : إن الأديان كلها ، وليس الإسلام وحده ، يبيح التعدد ، ولم يقل موسى أو عيسى أو من قبلها إن التعدد حرام ، والذى يثير الدهشة أن الإسلام يهاجم لإباحته التعدد ـ بقيود معروفة ـ وأن الحضارة الحديثة لا تهاجم وهى تبيح الزنا واللواط ، ولا تهاجم وهى تحبذ مراقصة لأنثى غريبة عليه ، ولا تهاجم لأنها تركت الرغبة الحيوانية تنطلق على ظهر الأرض دون عائق.. ! ! .

إن التعدد قليل بين المسلمين الآن لظروف اقتصادية واجتماعية ، لكن أتباع ديانات أخرى يلغون فى الأعراض المحرمة على نحو لم تعرفه الدنيا من قبل ، ويستطيع العامل المحدود الدخل أن يتصل بعشرات النساء إذا شاء دون كلام أو ملام ! .

بل يستطيع رجل الدين أن يتأسى بسليمان الحكيم الذى جاء فى التوراة أنه كانت لديه ألف امرأة ، ثلاثمائة من الحرائر وسبعمائة من الإماء ، ومع ذلك فقد كان ينطلق مغنيا فى شوارع القدس وراء « الحبيب المجهول » كما جاء ذلك فى العهد القديم فى سفر « نشيد الإنشاد الذى لسليمان » ... ! !

لقد قرأت أن « ريشيليو» الكاردينال الفرنسى المشهور كان مريضا بالزهرى ! فهل جاءه المرض من كثرة الصلاة ؟ ونشرت مجلة « النيوزويك » فى عددها الصادر فى ١٩٧٤/٧/١ أن أحد الكرادلة الكبار فى فرنسا مات فى أحضان إحدى العاهرات ، ونشرت إحدى العاهرات مذكراتها فى فرنسا ، فجاء بها أسماء ثلاث بابوات وأحد عشر كاردينالا . وقد نشرت « الديلى ميل » سنة ١٩٧٠ فى تحقيقات قامت بها أن الإحصاءات تشير إلى أن ٨٠٪ من الرهبان والراهبات يمارسون الزنا ، وأن ٤٠٪

الحجاب الطريد !!

جاءتنى فتاة يبدو عليها الحزن والضيق ، وقالت لى : إن حياتى الزوجية مهددة !

قلت : لماذا ؟ قالت : زوجى يرفض ملابس الحجاب التى أرتديها ، ويطلب إلىّ التكشّف وتعرية الرأس وإبداء زينتى للناس !! وأنا مستمسكة بتعاليم الدين ، لكننى الآن مهددة بالطلاق إذا لم أستجب له ...

الحق أننى استغربت القصة وبعد لقاء مع الزوج أفلحت فى تأخير العقوبة التى يتوعّد بها امرأته ، وعدت وأنا أتساءل : هل الدياثة طبعٌ فى بعض البشر؟ .

وماكدت أجلس إلى مكتبى وأفتح الكتب المرسلة إلىّ حتى استوقفتنى رسالة موقعة من نحو ستين فتاة بين طالبة وعاملة يستنجدن بى مما نزل بهن ..

الرسالة من قطر عربىّ « مسلم »[1] صدر به منشور إدارى تطلب فيه الحكومة التخلىّ عن « ملابس الحجاب » وإلزام كل طالبة فى المعاهد والجامعات ، وكل عاملة فى القطاعين العام والخاص بتعرية الرأس والسيقان وكشف ما تيسّر من الأذرع ، أى نبذ الحجاب الشرعى والظهور فى الملابس الغربية الشائعة فى العصر الحديث ...

وتتعرض للطرد فورا كل من تخالف هذا الأمر، وقد فصل عشرات من الطالبات اللاتى تمسكن بالزىّ الإسلامى .. ! .

وتم طرد طبيبات وممرضات من بعض المستشفيات لإصرارهن على التزام الحجاب .

وقال مدير أحد المعاهد العلمية : إن الطالبة التى تدخن أفضل عندى ممن تلبس الحجاب !! .

---

* القطر المذكور هو تونس ـ والمستشفى الذى طرد منه الموظفات المحجبات هو مستشفى « المنستير» .

وتحت وطأة هذا الإكراه ورغبة فى استكمال الدراسة خضع بعض الفتيات على حين آثرت أخريات المكث فى بيوتهن دون تعليم ! .

وأريد أن يعرف العالم الإسلامى أن الحجاب الممنوع إداريا هو كشف الوجه واليدين مع ستر باقى الجسم ، أى أن الفتيات لسن مُنقَّبات ! ومع ذلك فإن صورة التدين فى هذا الزىّ المحتشم مرفوضة . المطلوب أن يختفى كل اتجاه إلى الإسلام ..

والذين أصدروا هذا القرار الظلوم يطبقونه بصرامة ... على المسلمات وحدهن بداهة ، أما الراهبات المسيحيات فلا يجرؤ أحد على اعتراضهن ، وإن كان زِيُّهُنَّ هو هذا الحجاب المطارد !!

امرأة أفضل من الرجال

هذه قصة امرأة أفضل من بضعة رجال « نسيبة بنت كعب » المكناة بـ « أم عمارة » وهى صحابية جليلة ، شهدت معركة أحد ، وأبلت فيها بلاء حسنا ، وثبتت عندما هرب غيرها ، وكانت قريبة من النبىّ صلى الله عليه وسلم تنافح عنه ببسالة ومقدرة ، فقال يصف قتالها للمشركين : « لمقام نسيبة اليوم خير من مقام فلان وفلان ! » قال كتاب السيرة : كان يراها تقاتل أشد القتال ، وإنها لحاجزة ثوبها على وسطها ، حتى جرحت ثلاثة عشر جرحا ..

ويظهر أن أشد جروحها ما أصابها وهى تقاوم «ابن قمئة» وهو رجل من المشركين أقبل ساعة الهزيمة يصيح : دلّونى على محمد ! لانجوت إن نجا ! فكانت أم عمارة بين من اعترض طريقه من فرسان المسلمين ، فضربها على عاتقها ضربة غائرة ظلت تتداوى منها فيما بعد عاما . وضربته هى ضربتين لم تؤثرا فيه لأنه كان يلبس درعين !..

ومن الطرائف ماروته أم عمارة قالت : رآنى عليه الصلاة والسلام لاترس معى ، ورأى رجلا موليا ومعه ترسه ، فقال له : ألق ترسك لمن يقاتل ! فألقى ترسه فأخذته وتترست به. قالت وجعلت أدافع عن النبىّ عليه الصلاة والسلام ، فأقبل علىّ فارس وضربنى بسيفه ضربة وقانى منها الترس ، فلما فشل ضربت عرقوب فرسه بسيفى فوقع على ظهره ، وعاوننى ابنى عليه بعدما نبهه الرسول إلى ماحدث وأذقناه كأس الموت ...

واعترضت أم عمارة فارسا آخر كاد يقتل ابنها ، ضربته بسيفها على ساقه فبرك ، ومازالت به هى وابنها حتى هلك ، والنبىّ عليه الصلاة والسلام يشهد فعالها ويشدّ عزمها ويثنى على شجاعتها ، قال الراوى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم أحد : ما التفت يمينا ولا شمالا إلا وأنا أراها تقاتل دونى .. ! .

وقد شهدت أم عمارة بيعة العقبة ، كما شهدت بيعة الرضوان ، وبعد انتقال النبىّ

إلى الرفيق الأعلى قاتلت مع خالد بن الوليد فى حروب الردّة ، وشاء الله أن يستشهد ولدها ، وأن تقطع يدها فى معركة اليمامة ، وكان عزاؤها أن الله نصر المسلمين ، وقتل مسيلمة الكذاب وقضى على فتنته ..

ورجعت الأم البطلة إلى المدينة ، وهى مصابة فكان أبو بكر خليفة رسول الله يعودها ، ويتابع السؤال عنها ، رضى الله عنها وأرضاها .

أما تحتاج أمتنا فى هذا العصر إلى رجال من هذا الطراز ، إنها أولى ببيت المتنبى :

ولو كان النساء كمن فقدنا   لفضلت النساء على الرجال !.

فضيلة مدمرة !

الرهبانية عبادة اخترعها البشر ، وجعلوها رمزا للتسامى وقهر الغرائز وانتصار الروح على المادة .

ونسأل : هل الرهبانية فضيلة حقا؟ ونجيب : لو أن هذه الفضيلة شاعت بين الناس واعتنقها الرجال والنساء لقضت على الإنسانية خلال قرن أو بعض قرن ! لأن الحياة تنتهى بها والنسل يتوقف عندها ..

إنها فضيلة مُدمِّرة ! وطبيعة الأخلاق والمسالك الفاضلة إذا شاعت أن تعمرّ لا أن تخرب وأن ترق بالعالم لا أن تقضى عليه ..

ومن ثم فنحن من الناحية العقلية والاجتماعية نحارب الرهبنة وننظر إلى أصحابها ودعاتها وكأنهم مرضى ..

وقد رفضنا فى مواضع كثيرة وصف الغريزة الجنسية بأنها رجس من عمل الشيطان ، ويستحيل أن يجعل الله امتداد الحياة قائما على هذا الرجس ! إن هذه الغريزة عندما تستقيم وتنضبط تكون من سنن الفطرة ودعائم المودّة وقيام الأسر وكفالة الأولاد وإشاعة العفاف ! .

وقد أسهب الإسلام فى شرح هذه الحقائق ، وأظن العالم فى عصرنا هذا أحوج مايكون إلى فهم الإسلام والتمشى معه ، واعتبار الزواج عبادة والاعتراف بمطالب الغريزة داخل نطاق محكم من العدالة والتقوى وحسن التقدير...

إن الكنائس المختلفة تهاجم بضراوة نظرة الإسلام إلى الغريزة الجنسية ، ولاتنفك عن مهاجمته واتهامه ، وقد لاحظت أن آباء الكنيسة فى انجلترا أيدوا مجلسى اللوردات والعموم فى إباحة اللواط ، ورفضوا بإباء وشمم إباحة التعدد ـ بشروطه الإسلامية ـ

ترى هل ندموا على ذلك بعد ما انتشر وباء « الايدز » فى العالم كله نتيجة النظرة الغربية إلى العلاقات الجنسية ؟ .

يستطيع أى صعلوك فى مدن الغرب وقراه أن يشبع نهمته الجنسية من عشرات النساء ، والدول الآن فى ظل حضارة الغرب تيسِّر البغاء ، وتضمن بالكشف الطبى المنظم سلامة المومس لأن يطرقها من شاء ! فهل هذا هو البديل الدينى المحترم الذى يرتضيه آباء الكنيسة ويرونه أزكى وأشرف من إباحة التعدد ـ بشروطه الإسلامية ؟ .

لقد قرأت كلاما لبعض الكهان والرهبان يصف تعدد الزوجات بأنه زنى صريح أو مقنع ، ولم أقرأ لواحد من هؤلاء غمزا للفوضى الجنسية التى نقلت الحرام من عبث يتم فى جنح الليل إلى تهتك يتم فى وضح النهار ، إن هذا الفحش أرضى لنفسه المريضة من البيوت التى يبنيها الإسلام على النسب الصريح والطهر الكريم والعلائق المكينة .

هؤلاء الكهان والرهبان هم المسئولون عن شيوع الايدز والزهرى والسيلان.. وحقدهم على محمد ودينه مرض أفتك من هذه الأمراض الخبيثة كلها .

عبث بأسرار الخليقة

أحسست قدرا من القلق عندما انكشفت للناس بعض أسرار الخليقة ، فقد ساء تصرفهم فى العلم الذى أفادوه ، وتفاقمت الأخطار مع ضعف الدين والخلق ... ! .

لقد تجاوزنا عما سمِّى طفل الأنابيب ! وهى تسمية مزوَّرة لأن المزيج المتكون من ماء الرّجل والمرأة هو من صنع الله وحده ، ظل فى الأنبوب بضع عشرة ساعة ثم عاد إلى الرحم ليتكون فيه خلقا من بعد خلق فى الشهور التسعة المقدورة .. قلنا : أعان العلم زوجين على الإنجاب ، ووصل الزوج إلى زوجته بوسيلة مَّا فلا حرج !

ثم فوجئنا بما سُمِّى الرحم المستأجرة ! أى أن النطفة المتجمعة من شخصين توضع فى رحم امرأة أجنبية لتتحمل بالثمن الغالى أو الرخيص متاعب الحمل والوضع ! .

والحق أن هذا مسلك وضيع ، وقد رفضت محاكم انجلترا ذلك العقد ، وحكمت بالطفل لمن وضعته لا لمن استأجرها ، ونحن نرفض هذا العمل من أصله ! .

الأدهى والأمرّ من ذلك ما قرأته فى مجلة اليونسكو عدد مارس سنة ١٩٨٦ تحت عنوان « العلاقة بين الجنسين فى الغرب » جاء فيه : « إذا عرفنا أن علماء البيولجيا وعلماء الوراثة يتوقعون أن يتمكن العلم فى وقت قريب من إخصاب بويضة الأنثى دون الاستعانة بحيوان منوى ! .. أدركنا مدى اقترابنا من تحقيق حلم عريق قوى السلطان ، وهو حلم الإنجاب دون حاجة إلى الجنس الآخر. لولا أنه يعنى فى هذه الحالة إنجاب المرأة دون حاجة إلى الرجل .. الخ » .

ويزداد الطين بلة عندما نقرأ ماجاء فى الأهرام ١٠ مايو سنة ١٩٨٦ : « أعلن العلماء البريطانيون والأميركيون أمس أن الرجال يستطيعون الإنجاب خلال السنوات الخمس القادمة وأن الأطباء سوف يزرعون بويضة الأنثى فى أنبوب داخل جسم

الرجل .. ثم تتم الولادة بعدئذ بعملية قيصرية .. ويقول الطبيب الانجليزى « جون برسونز » إنه يمكن تزويد الرجل بالمكونات الخاصة بالجنين ، تلك المكونات التى يعجز جسمه عن إفرازها ، وبذلك ينفتح الباب أمام من تعجز زوجاتهم عن الإنجاب كى ينجبوا بأنفسهم » !!! .

لاأرتاب فى أن العالم فقد وعيه بهذا المسلك الطائش! إنه يجب الضرب على أيدى هؤلاء العابثين ! إن الحضارة الحديثة تشبه غلاما شديد البأس سقيم النفس يوشك أن ينتحر ! .

أدوية إسلامية لعلل العصر

فى الإسلام أدوية لعلل تشكو منها الحضارة الحديثة ، لكن هذه الأدوية قلما توصف وإذا وصفت فيستحيل أن تقبل لا لشىء إلا لأنها إسلامية ..

خذ مثلا قضية الخمر ! إن كلتا الجبهتين الشيوعية والرأسمالية تشكو من ضراوتها وآثارها ، وتحصى الخسائر الناجمة عن شربها فى مجال الإنتاج والمواصلات والصحة العامة ، إلى جانب الأخلاق والأعمال المختلفة . ومع ذلك فإن اللجوء إلى تحريمها ليس موضع تفكير لأن الإسلام سبق إلى هذا التحريم البات .

وأذكر أنه فى أعقاب الحرب العالمية الثانية فكر الألمان فى إباحة تعدد الزوجات لأنهم فقدوا نحو ثمانية ملايين من القتلى والأسرى ، وزاد عدد النساء زيادة كبيرة ، ثم رئى أن الزنا أفضل من اتباع الإسلام فى حلّ هذه المشكلة ...

أكتب ذلك بعد أن قرأت لكاتب فرنسى «محافظ» كلمة تحت عنوان «هذا اليسار الذى يفسد أولادنا ...» جاء فيها مايلى : يوجد فوق مكتبى كتيِّب مصور يحمل عنوان «أحبَّ واستعلم» وموضوع الكتاب لا علاقة له بالحب ، وإنما هو إرشادات عملية لممارسة وقاع لا يخشى معه إنجاب ودعوة لإجهاض مضمون ووطنىٍّ باسم حقوق الشباب !! .

وقد تم إنجاز هذا الكتاب بتعاون مشترك بين وزارات الشبيبة والرياضة ، وحقوق المرأة ، والصحة ، واتحاد مدارس المربين ، ومنظمة التضامن الطلابى ! .

وطبعت منه خمسمائة ألف نسخة على نفقة المكلفين ووزعت على جماهير الطلاب الذين طلب منهم عدم الأخذ بآراء أوليائهم فى هذه القضية ...

يقول الكاتب لويس بوولس فى المقال الذى نشرته له صحيفة الافتتاحية الصادرة بتاريخ ١٩٨٤/٥/٥ إن هذا الكتيب الرسمىّ لم يرع أية اعتبارات نفسية أو خلقية أو

فكرية أو أسرية ـ ولم يذكر الكاتب شيئا ما عن الاعتبارات الدينية ـ ولخص فكرته العامة الموجهة للشباب فى هذه العبارة : اسقطوا فى الوحل والدولة تطهركم .. ! .

إن اليسار الفرنسى ترك الحكم فى الانتخابات الأخيرة ، فهل كان اليمين أزكى ؟

إن الإسلام وحده الموجه الحاسم لهذه الفوضى ، والقاضى الصارم الذى يستأصل تلك الحيوانية الجامحة .. أو قل بتعبير أدق يحول دون وقوعها بما شرع من عبادات وحدود وضوابط ..

لكن المسلمين بعد ذوبان شخصيتهم يرنون بإعجاب إلى مباذل الغرب ومآسيه ومعاصيه ...

عالمية الرسالة الإسلامية

عالمية الرسالة الإسلامية عقيدة من مقررات الفكر الإسلامىّ ، تعتمد على نصوص قاطعة فى كتاب الله وسنة رسوله ! ويستطيع قارئ القرآن الكريم أن يطالع هذه العالمية فى سور التكوير ، والقلم ، وص ، وسبأ ، والفرقان ، والأنبياء ، ويوسف ، والأعراف ، والأنعام ... أى فى عشرة مواضع متفرقة أثبتناها فى مكان آخر.

ولفتنا النظر إلى أن هذه السور جميعا مكية بل نزل بعضها فى السنة الأولى من بدء الوحى ، مما يردّ أوهام المستشرقين الذين زعموا أن فكرة العالمية طرأت على الرسول بعدما نجح فى إخضاع العرب عسكريا ، فأغراه النصر الذى أحرزه ، بأن يمد رسالته إلى الأجناس الأخرى ..

لابد أن المستشرق الذى أرسل هذا اللغو كان مخمورا فاقد الوعى ، وعلى أية حال فليس فيما قاله أثارة من علم ، أو سناد من تاريخ ! .

وينضم إلى نصوص القرآن فى تقرير عالمية الرسالة حشد من السنن القولية والعملية بلغ حدّ التواتر ، ما نازع فيه منازع ، بل لم ترق إليه شبهة ..

وقد توارثت هذه العقيدة أجيال المسلمين المتعاقبة فلم يشغب عليها شاغب ! وعندما حاول التبشير الصليبى أن يهمس بكلام آخر نظر العلماء إلى هذه المحاولة باحتقار ، واستبعدوها من ميدان الرأى المحترم ، وعدّوها من وساوس الحقد الموروث

ثم جاء دور العبث السياسى بالمقررات الإسلامية ! فإذا الرفيق «ميشيل عفلق» يصف محمدا بأنه عبقرية عربية وقائد عظيم من قادة الأمة الخالدة !! . ودعك من الوحى الأعلى وختم النبوة وهداية العالمين !! .

وهذا المدح لايساوى قلامة ظفر ، فإن تجريد كبير الأنبياء من تلقى الوحى الإلهى هو أقذع هجاء .

ثم جاء الرفيق الدكتور محمد خلف الله يقول إن الإسلام طور من أطوار الترقى للشخصية العربية ! وأن محمدا عليه الصلاة والسلام زعيم هذه العروبة فى طورها الجديد ، أى أنه رسالة من الأرض نبعت ، وفى قوانينها مشت ..!!.

فلما قال شيخ الأزهر : إن الإسلام رسالة سماوية عالمية جاء الرفيق لطفى الخولى يقول : إن تفسير القرآن ليس حكرا على الأزهر ، ولا على علماء الدين !! أى أن أولى الناس بتفسيره من يقولون : لا إله والحياة مادة !!.

ما أظن الهزل فى ميدان المعرفة بلغ هذا الحد من الإسفاف الذى نقرؤه اليوم ! وأحسب أن الأمر يحتاج إلى علاج آخر .

الجـزء الثانى

فـارس ضـد الإسـلام

فى أوائل احتلال الفرنسيين للجزائر أصدر الحاكم العام أمرا بتحويل أكبر مساجدها إلى كاتدرائية ! وتحركت فرق الجيش المستعمر إلى مسجد «كيتشاوة» فحولته إلى كنيسة بعدما ذبحت أربعة آلاف مسلم استماتوا وراء أبوابه يقاتلون الغزاة الصليبيين .. ثم بعد قرن أدال الله للمسلمين فاستعادوا مسجدهم وشقّ الأذان أجواز الفضاء مرة أخرى يهتف بتكبير الله وتوحيده .

ماذا يقول رجل مثل محمد أركون عن الصلاة والأذان وإقامة المساجد وحضور الجماعات ؟ يقول : «ليس من الضرورى دائما التجمع فى مسجد لأداء الصلوات ، فالصلاة علاقة فردية بين الإنسان وربه ــ أو بين الإنسان والمطلق كما يسمى الله ــ إنها قضية بين الفرد وربه فى الإسلام وفى أديان التوحيد الأخرى » !! [1] .

إذن لماذا بنى المسلمون المساجد ، وعكفوا على حضور الجماعات ؟ يقول أستاذ الدراسات العليا فى السربون : الحكام ورجال السلطة هم الذين فعلوا ذلك ! إن التاريخ الإسلامى وقع بين أيدى أسر مالت به إلى هذه الوجهة ! .

وعبارة فيلسوف الفكر الإسلامى فى جامعة السربون هى «الشركله آت من الخلط الذى استقر لأسباب تاريخية بين الاستعمال السياسى لما هو دينى ، والفراغ الفردى عند المؤمن» !!! هذا "هو التفسير العلمى لبناء المساجد وإقامة الجماعات بها ! .

وقد كوفئ أركون بأن منحته فرنسا لقب فارس «شيفالييه» على هذه الجهالة المركبة ! .

إنه فارس ضد الإسلام وأمته ، ونحن لا نلقى هذا الفارس بسيف ، إننا لا نلقاه إلا بالعصا أو بما هو دونها ..

---

(١) من ملف «الإسلام فى فرنسا» عن مجلة «المراقب الجديد» عدد ٧ ــ ١٣ فبراير ١٩٨٦ م .

وعلى طريقة المبشرين فى مهاجمة الإسلام يقول الدكتور أركون «إن الحكومات تفسر قراءة متوارثة للنص القرآنى على طريقتها ، لكن النص نفسه مخبوء ومشوّه ومنسى ! » وهو يرسل هذا الكلام الطائش بين يدى حكم له أن الدين يحرم تعدد الزوجات... ونحن نعلم أن القرآن فوق شبهات أدعياء العلم فكيف بشبهات الحمقى ؟ .

لكننا ننصح جمهور المبشرين وأذنابهم بأن يلتفتوا وراءهم وينظروا إلى بلادهم ! إن الإسلام خيّر بين إباحة الزنا وبين إباحة تعدد الزوجات ، فاختار الحل الثانى وأبيتم أنتم إلا أن تبيحوا الزنا واللواط والبغاء ، وأن تحصدوا من هذه الإباحة مجموعة من الأمراض العفنة آخرها «الايدز» الذى شرعت هيئة الأمم تكافح غارته على الحضارة البشرية ..

أعرف أن ببغاوات كثيرة من المشتغلين بالإعلام والتعليم تشتغل الآن لفتنة المسلمين عن دينهم ، وإثارة لغط أجوف حول عقائدنا وعباداتنا .. وهيهات أن تصل هذه الببغاوات إلى شىء ، سينهزمون كما انهزم سادتهم ـ .. وسوف نرى ! ! .

هـراء يجـب أن ينتـهى

أشعر بازدراء نحو الذين يرفعون راية المنطق العقلى فإذا تحدثوا عن الإسلام لم تر فى حديثهم أثارة من منطق أو بقية من عقل ! يقول أستاذ الثقافة الإسلامية فى السربون : « إن المسلمين مشغولون بالسعى وراء المطلق ! . ـ والمطلق تعبير فلسفى عن الله ـ وقد تنسب إلى هذا المطلق أمور من صنع الناس هى فى الحقيقة جرثومة التعصب الذى نشكو منه » .

وما علاج هذه الحال عند الأستاذ الألمعى ؟ يقول فى آخر مقاله[1] : « أرى من الضرورى من خلال التجربة الإسلامية والأزمات الحالية طرح السؤال من جديد حول مكان المطلق فى حياة الناس » .

أى لا داعى للارتباط بالله والاستهداء بتعاليمه ! هل هذا الاقتراح موجه لأتباع الأديان كلهم ؟ لا ، فالمقال كله هجوم على شعائر الإسلام وحده ، على الصلاة والصيام والتشريع وكل ما تهتف به الصحوة الإسلامية المعاصرة ...

أما الهجوم الدينى على فلسطين فالسكوت عنه فرض عين ! وكذلك انسياب الصليبية العالمية فى أرجاء الدنيا تفرض صبغتها وتحكم قبضتها وتضرب سياجا حول المستضعفين فى الأرض ، ذاك كله لا حرج فيه عند أستاذ الدراسات الإسلامية فى جامعة السربون ! .

يقول المحقق العلامة عن صوم رمضان : ذات يوم استدعى الرئيس بورقيبة أصدقاءه لتناول الغذاء فى نهار رمضان فلما تساءل الناس عن هذا التصرف واستنكروه قال لهم المجاهد الأكبر : لقد استدعى الرسول نفسه أصدقاءه للأكل والشرب فى رمضـان ! . نعم كان هذا استثناء له ما يسوغه وهو خوض إحدى المعارك ... لكننا نحن أيضا نخوض معركة ضد الفقر ! ! .

---

(١) نشر ضمن ملف حول الإسلام فى فرنسا بمجلة « المراقب الجديد » عدد/٧ ـ ١٣ فبراير ١٩٨٦ م .

ويعلق معلم الإسلام فى السربون على هذه الحكاية التى تصلح للنشر بين الحشاشين فيقول : «كما ترون يجب قراءة القرآن والتفكير فيه بشكل آخر يغاير كل المغايرة ما يشاع» .

هذا الهزل يصدر عن رواد الحانات ولا يجوز بتة أن يصدر عن أساتذة جامعات .

أى جهاد باشره الرئيس المخلوع يبيح له الإفطار فى رمضان ؟ أظن جميل بن معمر كان أولى بلقب المجاهد الأكبر عندما أنشد :

يقولون جاهد يا جميل بغزوة وأى جهاد غيرهن أريد ؟
لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل بينهن شهيد !

فلنترك لقب المجاهد الأكبر يتنازعه مجنون ليلى وحبيب بورقيبة ولننظر إلى أستاذ الدراسات الإسلامية فى السربون لنقول له :

يا سيد محمد أركون أما تنتهى عن هذا الهراء ؟ .

أكل مرتد عن دينه ناقم على قومه يلتحق بجامعة صليبية ليهاجم الإسلام ؟ .

ما هي حدود غفلتنا ؟

تحت عنوان «هل بلغت غفلتنا هذا الحد ؟» نشرت صحيفة النصر الجزائرية كلمات من القاموس الفرنسي «لاروس» المتداول بين بعض الطلاب الجزائريين ، وفى هذه الكلمات يقول المؤلف «محمد هو نبي الدين الإسلامى الذى بشر به على أنه مرسل من الله ، إن هذا الرجل نبي للشر ، وينبىء بحلول الشرور» .

والطبعة التى احتوت على هذى البذاءة طبعة ايطالية تحت سنة ١٩٨٦ م .. وكانت لحساب وزارة التربية الوطنية .

وعندما انكشفت هذه المأساة طردت الدولة المسئولين عنها ، وأنزلت بهم ما يستحقون من عقاب ...

لفتنى هذا الخبر ، ولم تفتنى دلالته ! إننى أعلم كما يعلم غيرى أن المستشرقين والمبشرين القدامى استباحوا حرمات الإسلام ، وافتروا على نبيه الأكاذيب ، وكانوا يتخيرون فى مهاجمته الألفاظ التى تدور بين الرعاع .. ثم جاء من بعدهم خلف أنظف ألسنة إلى حد ما ، فيهم المعتدل والمتطرف ، فيهم المقسط ، والقاسط ، فيهم صاحب الهوى وطالب الحق ، وبدت فى كتابات المستشرقين مسحة من العلم ، وإن كانت مشوبة .

ثم نشرت هذه الطبعة من قاموس لاروس منذ عام واحد ، ويبدو أن القوم حنّوا لسيرتهم القديمة وعادوا يرددون شتائم الآباء .

وليس فى هذا الأسلوب ما يخيف ! بل هو سلاح يصيب أصحابه قبل أن يصيبنا ، وإنما الذى أخافه على أبنائنا سماسرة الاستعمار الثقافى فى الميدانين الإدارى والأدبى .. هناك أشخاص يقبعون فى أركان المكاتب الحكومية لهم سلطات بعيدة المدى يستطيعون من خلالها الإساءة إلى الإسلام وجر المتاعب على أمته المسترسلة الذاهلة ، وقد يصدرون

أو يعينون على إصدار أوامر تبدو محايدة أو بريئة وفى أطوائها شر كثير على الدين ومستقبله ، ولا ينكشف خبؤها إلا بعد أن تحقق غرضها ..

إن عشرات من مكاتب تحفيظ القرآن غلقت لأسباب صحية ! . وقد رأيت موظفين حكوميين كانوا أنجح فى محاربة الإسلام من مبشرين حاقدين ! .

هذا رئيس إدارة محدودة يكره موظفا معروفا بإقامة الصلاة ويؤخر ترقيته ، أو يكره موظفة محجبة ويقدم عليها أخرى متبرجة ... ! .

وهذا الرئيس الخائن لأمانات عمله هو الذى تراه بقدرة قادر قد أضحى فى الصدارة ! ولعل مثله فى فراغ القلب واللب هو الذى تعاقد على استيراد قاموس لاروس لتسميم عقول الطلبة لقاء شىء من حطام الدنيا .. ! .

أما إخوان المبشرين والمستشرقين فى ميادين التعليم والإعلام فحدث ولا حرج عن جراءتهم على الله ورسوله ، وشغلهم الجماهير باللغو الذى لا طائل تحته ، أو بالحديث الذى يصدق عليه القول بأنه علم لا ينفع وجهل لا يضر ! .
المهم تدويخ الفكر الإسلامى وحسب .

متخلفون علميا أم خلقيا ؟ !

هل نحن متخلفون علميا أم خلقيا ؟.

إننا فى ميدان الإنتاج الصناعى والزراعى ضعفاء ، وفى آفاق الثقافة والحضارة أتباع نخطو حينا ونكبو أحيانا ! قلت : أعزى النفس : لعل أخلاقنا أزكى ! .

ثم قرأت هذا الخبر الآتى من الصين فقد السيد «شان تو» عضويته فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى ، لماذا ؟ لأنه وهو مدير عام للطيران المدنى سعى للحصول على تذاكر سفر مجانية لأولاده ! إنه ـ لهذه المحاباة ـ فصل من عمله ومن الحزب معا ..

قلت : ما أكثر الذين يستغلون نفوذهم عندنا لنفع أقاربهم وأصدقائهم ، ولا ينالهم أذى ! ! .

وقرأت كيف رفض مجلس الشيوخ الأميركى اقتراحَ رئيس الجمهورية « مستر ريجان » تعيين أحد القضاة فى منصب خال بالمحكمة العليا ، وسبب الرفض أن القاضى المرشح اتهم فى شبابه بتدخين « الماريجوانا » ! .

قلت : إن لدنيا من شرب الخمر ودخن الحشيش وتولى أعلى المناصب ! ..

وعلم الناس ولم يعترضوا ، ولو وقع اعتراض لعوقب المتكلم ونجا المتهم ! .

قال صديق : على أية حال نحن من الناحية الجنسية أشرف أخلاقا وأنقى أعراضا .. فسكتّ وتملكتنى حيرة وقلت : نعم الأعراض هناك مستباحة على نحو منكر ، بيد أنى أتساءل : لماذا انسحب مرشح الحزب الديمقراطى من الانتخابات لرئاسة الجمهورية عندما اتهم بعلاقة مريبة مع إحدى الغوانى ؟ .

لماذا استقال وزير الحربية فى انجلترا لعلاقته السيئة بسكرتيرته ؟.

إن شئون هؤلاء الناس تبدو غامضة أمامى ! مباذلهم شائعة ، وضوابط الحياة العامة

صارمة ، وأهواء الأفراد تحترق أمام المطالب القومية والمصالح الوطنية ... أما فى العالم الثالث فالأفراد تحاكم الشعوب ، بل تحاكم التاريخ وعمالقته ، وقد استمعنا إلى رويبضة[1] يرفض السنة النبوية كلها ، ويخطّئ عمر بن الخطاب لتأريخه بالهجرة ! .

أخشى أن أقول : إن التخلف الأخلاقى فى العالم الثالث أسبق وأقسى من التخلف العلمى والصناعى والحضارى ..

إن بعض المجتمعات العربية نقلت النظام الشيوعى إليها أو بتعبير أدق مبادئ الاشتراكية الحديثة فماذا حدث ؟ .

لقد رأيت موظفين يستغلون المرافق الحكومية وكأنهم ملوك الإقطاع ! .

ويتخوضون فى مال الله قدر ما يستطيعون ما داموا يستغفلون القانون ويخادعون حراسه !! .

المأساة الكبرى أنه لا ضمير ولا خلق .

وأبرز خصائص الأمة العربية أنها تفقد نفسها حين تفقد الدين ، ولن تنقذها نعرة جنسية أو وطنية .

---

(١) رويبضة : التافه يتكلم فى الشئون العامة كما جاء فى الحديث .

أين تذهب فى المساء؟

من شبابى الباكر إلى اليوم كنت إذا قرأت الصحف اليومية أتجاوز باب «أين تذهب هذا المساء»؟ لأنى أعرف أين أذهب، ولأنى لست بحاجة إلى من ينظم لى وقتى!.

إننى أطلب أبدا المزيد من المعرفة، والمزيد من نفع الناس، وقلما أجد فراغا بعد تلك الواجبات، إلا أنه بدا لى فى أحد أيام الشهر الماضى أن أتعرف كيف يقضى الناس أوقاتهم فى المساء؟ فأمسكت إحدى الصحف الكبرى، وقرأت أسماء «الأفلام» التى يقضى الناس معها أمسياتهم، وغلبتنى الدهشة والحيرة وأنا أطالع هذه العناوين المعلن عنها فى مساء يوم واحد: لهيب الشيطان. السفلة المحترفون. ثورة كنج كونج ـ ولما كنت لا أعرف قائد ثورة اسمه كنج كونج فقد سألت أحد الناس عنه فقال: هو قرد هائل يهشم ما يقع تحت يده ـ.

وتابعت قراءة الأسماء: الرجل المدمّر. ميراث الغضب. علاء الدين. النمر والأنثى. رجل فى عيون امرأة. جرى الوحوش. عزبة الصفيح الملعوب. قسوة الانتقام. قاهر التماسيح. النتجا الجبار ـ ولا أعرف هذا النتجا! ـ الثأر والانتقام. الهجوم الدامى أو القتلة الطائرون. معركة التنين الجبار. سيف الشيطان بنات من نار. المنتقم بقبضته.

وسقوط نيويورك! ـ يعنى وضاعة وهبوط نيويورك، فإن هذا البلد لم يسقط فى يد الأعداء كما أعلم ـ انحراف. شهوة الانتقام!.

هذه الروايات كلها تعرض فى مساء أسود، ولو كان مضاء بالكهرباء، مساء واحد يضم هذا الفكر الخسيس كله، ويتدبره النظارة المسوقون بسياط الدعاية، وسماسرة الغزو الثقافى، يقضون معه الساعات الطوال ويترك فى النفوس أسوأ الآثار..

هل يخرج أحد بانطباع عال، أو بطموح كريم؟ هل هذه العروض تعين على تربية

سليمة أو تدعم خلقا زاكيا ، إن الجيل الذى يخرج من هذه الدور لا يخرج فارغ العقل والقلب وحسب بل يخرج مليئا بالصغائر والكبائر على سواء ..

عندى أن سموم الحشيس والهوروين ليست أكبر ضررا من سموم هذه المهالك المجلوبة من الخارج ، وأن الأمة التى تشهد هذه القصص تضل الطريق إلى مستقبل معقول !! .

وأقبل علىّ المساء ، ولا تزال عناوين الأفلام المطلوب مشاهدتها ماثلة فى نفسى فتذكرت هذا الدعاء :

«اللهم اجعل مساءنا هذا مساء صالحا لا مخزيا ولا فاضحا» .

الإسلام فى فلسطين

تابعت الانتفاضة الكبيرة لإخواننا فى فلسطين المحتلة ، ورأيت البنين والبنات يقذفون بالحجارة جيش إسرائيل المزود بأحدث الأسلحة وأفتكها ، لم تخنهم شجاعتهم ولم يتسلل إلى قلوبهم خوف أو جزع ! ورأيت الأمهات العربيات يخرجن من المخيمات المحاصرة لجلب الطعام إلى أطفالهن ، ورأيت هذا الطعام يداس تحت نعال الجنود ، واستمعت إلى التعليقات الجريئة المتجبرة التى كان يصدرها القادة اليهود ، وأحزننى أن البغاث بأرضنا يستنسر ، وأن الأحرار يضامون ، وأن ساسة العالم الأول ينظرون إلى المعركة الدائرة إما باستخفاف ، أو بكلمات ميتة ، أو باستنكار سلبىّ خافت ..

ولكن الذى أثار غضبى واشمئزازى ما كتبه هنا بعض الصحافيين العرب ! فقد لاحظوا أن الإسلام محرّك هذه الانتفاضة ومشعل حماسها ، وأن صيحات التكبير كانت تملأ الجو وتمدّ بالطاقة .. فقلت لمن حولى : ما هؤلاء الناس ؟ قال : ظاهر من تعليقاتهم أنهم لا يريدون إضفاء الطابع الإسلامىّ على الثورة المتجدِّدة ، ولا يريدون العودة إلى عصر الحروب الدينية ! .

قلت : ومن يريد هذه العودة ؟ إن الحروب الدينية لا تخطر لنا ببال ! إن غيرنا هو الذى فعلها ! إن بنى اسرائيل هم الذين تحركوا باسم التوراة ، وزعموا أن الأرض المقدسة ميراث لهم ، وأن العرب مغتصبون يجب إخراجهم منها ، وأن الأحق بهذه الأرض لا أصحابها من عشرات القرون ، بل مهاجرون يُسْتَخْرَجُون استخراجا من روسيا وبولندا ، وشتى أقطار الأرض ليحلوا محل العرب الذين يطردون من مدنهم وقراهم ويسكنون فى مخيمات للاجئين لا حاضر لهم ولا مستقبل ..

فإذا أقبلت عقيدة ما لاغتصاب الأرض وطرد السكان جاز لها أن تعلن عن نفسها ، وأن تتخذ الدين عنوانا لها ، أما إذا استظهر السكان بعقيدتهم وهم يدافعون عن حقوقهم فإن

ذلك مثار النقد والغرابة ؟ قال صاحبى : ذلك لأن الإسلام هو الدين المدافع ، والإسلام اسم ينبغى أن يختفى من ميادين كثيرة ، وألا تتحرك تحت لوائه جماهير أو طوائف ! .

ماذا أقول عن هؤلاء الصحافيين الناقمين على الإسلام ؟ إنهم لم يرتدّوا عنه لأنهم لم يسبق لهم أن دخلوا فيه ! إنهم نوع من الناس لم يُصنع عقله فى مصر أو غيرها من بلاد العرب ، إنهم صناعة الاستعمار الثقافى الأنكى من الاستعمار العسكرى .. فلنحذر على أنفسنا .

الدم الفلسطيني المهدور

لماذا نحسب تضحياتنا صغيرة مهما كبرت ، ونحسب تضحيات غيرنا كبيرة ويزاد فيها كما وكيفا ؟ .

لقد عدت بذاكراتى إلى المغارم التى تحمَّلها شعب فلسطين خلال نصف القرن الأخير فوجدت صفحة مجللة بالسواد ، مفعمة بالمآسى ..

عند محاولة الاستعمار البريطانى إقامة اسرائيل وبعد نجاح هذه المحاولة كانت أرواح العرب تزهق بالآلاف ، وأرضهم تغصب ، وبيوتهم تنسف ، والهوان البشرى يلاحقهم فى المدن والقرى ! ومع ذلك كله لم ييأسوا من روح الله ولم تضعف مقاومتهم للغزاة . ولكن أمواجا من النسيان تذهب بجهادهم ، وتسدل عليه أستار من الغمط والجحود .. !! .

وعلى عكس ما وقع ويقع فوق أرض فلسطين رأيت اليهود فى ألمانيا النازية ينزل بهم ضيم أقل مما ينزل بالعرب ، ويحبسهم هتلر فى المعتقلات ويعدّهم مسئولين عن هزيمة قومه فى الحرب العالمية الأولى ...

وينهزم الألمان فى الحرب العالمية الثانية ، فإذا طبول الدعاية تدق بصوت مزعج ، تروى للناس أن عدة ملايين من اليهود أحرقوا فى الأفران ! وأن ملايين أخرى فرت مذعورة إلى الشرق والغرب لا تجد مأمنا ولا مأوى ! .

وما ننكر نحن أن اليهود عذبهم الألمان ، ولكننا ننكر المبالغات الهائلة التى لجأ إليها بنو إسرائيل فى تصوير نكبتهم كى يستدروا العطف العالمىّ ، وتترك لهم فلسطين ، ويقصى عنها أهلها ..

واليوم يلقى عرب فلسطين من الحكم اليهودى شرا مما لقيه اليهود فى ألمانيا النازية ؟ لماذا ؟

وبأى شريعة ؟ قرأت أن المجاهدين العرب يوضعون فى علب حديدية قاعدتها نصف متر مربع ، وفوق رءوسهم أكياس من الرمل يزن الكيس ٢٠ كيلوجرام لمدة ساعات طويلة ، وأنهم يغطسون فى حمامات من الماء المثلج ، وأنهم يُجبرون على شرب بولهم ، ويضربون على خصيِّهم .. وأن اليهود يبصقون فى أفواههم . ويجبرونهم على الانحناء لجنودهم ومناداتهم بأنتم سادتنا . ! ! .

إن اليهود لم يلقوا فى ألمانيا النازية هذا العذاب ! وقد أثبت البحث العلمى أن حرق ملايين اليهود هناك أسطورة لا أساس لها ، ولو فرضنا أنهم نزل بهم أشد العذاب ، فما ذنب العرب ؟ ولم يُقتصّ منهم ؟ .

الحق أن للعرب ذنبا آخر قد يكون أشدّ من كل الذنوب ! لقد وهت علاقتهم بالله ، وتقطّع ما بينهم من أخوة ، بل إن بعض العرب حاصر مخيمات اللاجئين قبل أن تحاصرها شراذم اليهود ! وظل هذا الحصار بضع سنين حافلا بالمآسى حتى ألّفت طبيبة انكليزية كتابا عن آلام أطفال الحصار ! فلْنلُمْ أنفسنا قبل أن نلوم غيرنا .

من يعيننا على السلام ؟

لى أصدقاء من أهل الكتاب فى نفوسهم طيبة . وفى عقولهم ذكاء . ولهم منطق رأيت أن أستمع إليه وأجيب عليه ..

قال لى أحدهم : ما نهاية العداء القائم بين العرب واليهود ؟ فعرفت ما يقصد ! وقلت له : يا صديق . إن أولى الإنصاف من المؤرخين يقررون أنه لولا ظهور الإسلام لبادت اليهودية واليهود جميعا فى وقدة التعصب القديم ضدهم . وعدّهم مسئولين عن دم المسيح كما تقرر ذلك الأناجيل التى بين أيدى أصحابها .

لقد عاش اليهود فى أرجاء العالم الإسلامى موفورين . ما اضطهد أحدهم فى اليمن أو فى مصر أو فى العراق أو فى المغرب .. ولو أنهم كانوا ضعف عددهم الحالى ــ وهم نحو خمسة عشر مليونا ــ ما فكر المسلمون فى اضطهادهم ، ولا نظروا لاختلاف الدين نظرة حيف أو بغضاء ..

إن المسلمين يعلمون أن نبيهم الخاتم مات ودرعه مرهونة عند تاجر يهودى مصون الدم والعرض والمال ، قادر كل القدرة على ألا يسلف النبىَّ إلا برهن ، ما شعر بقلق ولا حرج .. إن التظالم لاختلاف الدين لا تعرفه أخلاقنا ولا تقاليدنا ولا شرائعنا ...

لكن عندما يزحف اليهود على فلسطين ونيَّتُهم المعلنة إعادة هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى . وتشريد وإذلال العرب فى البلد المحروب . وانتهاز الهزيمة الإسلامية للقضاء على تراث محمد كلّه .. فماذا تنتظر من العرب والمسلمين ؟ الموت دون هذا بيقين ! .

وشىء آخر لابد من مواجهته ! إن الإنكليز لما ملكوا فلسطين قاتلوا العرب تمكينا لليهود . أعطشوا أرضهم وأذلوا جانبهم . وقرروا إذا وجدوا رصاصة فى بيت يدافع بها

عن نفسه، أن يدمِّروا البيت ليسكن أهله فى العراء! وذلك كله يقع فى ظل الكلمة التى قالها مارشالهم «اللنبى» بعد الاستيلاء على فلسطين : اليوم انتهت الحروب الصليبية . !

وتفككت الامبراطورية البريطانية ، وخَلَفَهَا فى قيادة العالم الأمريكان ، فاستأنفوا المساندة الصليبية لبنى اسرائيل ، وأمدوهم بسيل من المال والسلاح لا تغيض منابعه ، ووقفوا محامين عنهم فى مجلس الأمن ، فإذا قرر أعضاء المجلس التنديد بإسرائيل لما تقترفه من آثام سارع المندوب الأمريكى بإبطال القرار ، وإعطاء إسرائيل الحق فى المزيد من الطغيان ..

ظاهر أن الإسلام يلقى عنتا موصولا ، وأن أهله يلقون من إخوانهم أهل الكتاب ، إن صحّ التعبير ، الامتهان والغدر.

يا صديقى ضع نفسك مكانى ثم أجب أنت عن السؤال الذى وجهته إلىَّ ، إننا نَحنُ إلى سلام يملأ العالم ، فهل تعينونا على صنعه ؟ .

محاربة الإسلام باسم التطرف

نرفض المسلك الجديد لأعداء الإسلام فى أقطار كثيرة ، إنهم يعبثون بالألفاظ ويخادعون بالعناوين متوسلين بذلك إلى بلوغ غاياتهم ! .

إنهم يحاربون الإسلام ذاته تحت راية محاربة التطرف ! .

والذى يقيم الصلوات ويدعو إلى إقامتها لا يوصف بتطرف ! والذى يحترم حدود الله ويكره اعتداءها لا يوصف بتطرف ، والذى يستنكر الاستعمار التشريعى والاجتماعى ، ويريد العودة بالأمة إلى ينابيع الوحى لا يوصف بتطرف ! ! .

إننا نرعى البناء الإسلامىّ كله حجرا حجرا ، ونريد إعادة الجدَّة والرونق إليه بعد ما حوّله الاستعمار العالمى إلى أنقاض فى السنين التى خلت ..

والتطرف الذى نأباه ونحاربه هو عجز علمىّ عند بعض المنتمين إلى الإسلام يجعلهم يتصورون المباح حراما ، أو النفل فرضا أو العادات عبادات أو تقاليد بعض البيئات هديا سماويا ، وقد تصحّ لهم أفهام فقهية غير أنهم لا يحسنون وضع الخطط الراشدة لإنصاف الدين المظلوم ، ويسارعون إلى دخول معارك لم يأخذ الإسلام لها أهبته ، أو يستكمل عدته ..

والأدهى من ذلك كله الاشتباك مع الظواهر الشائعة دون تعمق فى فطرة الإسلام ، وصبغته العقلية ، وقدرته على تطويع الحياة لخدمة أهدافه ومثله ..

فى القرن الماضى ظهر جمال الدين الأفغانى ، وكان رجلا حاد الذكاء حاد الطبع يحتقر التعصب الأوربى ويمارس إنقاذ الجماهير من غارته . وكان يرى أن الحكومات الإسلامية مصدر الداء وأصل البلاء فوجه إليها حملات منكرة ودخل معها فى حرب حياة أو موت .. وترك دويا واسعا ولم يصنع شيئا طائلا ..

وكان الشيخ محمد عبده ألمع تلامذته ، وقد شارك فى الثورة العرابية ، وجنى معها الفشل ، ولكن محمد عبده له ذكاء الفيلسوف ودقة الفقيه وأناة المربّى ، فأدرك أن الأمة التى تفقد التربية السليمة لا تحقق شيئا ، ولا تنجح لها ثورة ، وإذا نجحت لها ثورة لأمر ما ، فسرعان ما يستولى عليها الشطار ونهازو الفرص ، ويستغلّونها لمآربهم !.

من أجل ذلك لجأ إلى التربية ، ورفع مستوى الشعوب ، وإبعاد العطب الذى سرى فى كيان ثقافتنا الدينية ، واشتغل بتشكيل العقل الإسلامى على نحو صحيح ! .

ونحن نؤكد أن الأمة التى لا تتربى لا تفلح ، ولا يقوم بها جهاز إدارى محترم ، وقد تكون الجامعات بها قصورا شامخة لكنها مبنية على أسس واهية .

فلنربِّ أنفُسنا وأمتنا لنضمن الحاضر والمستقبل .

أوليـاء الـدم نسـوه

أغضبنى أن الصليبية العالمية تحقق آمالها بدهاء وفى سكون على حين نتابع نحن الهتاف ونكثر الضجيج ولا نبلغ هدفا من أهدافنا .. وفى الآونة الأخيرة تعاونت الصهيونية والاستعمار على إقصاء « أحمد مختار امبو » من رياسة اليونسكو ، وبعد مؤامرة متعددة المراحل وضيعة الوسائل استطاعت إبعاد الرجل الشامخ وإخلاء الميدان من خصم عنيد للتبشير فى ميدان الثقافة ، ومن خصم عنيد « لإسرائيل » وهى تحاول محو طابع فلسطين العربى ، وإضفاء الصبغة العبرية على كل شىء فى البلد المحروب ..

كانت الولايات المتحدة وانجلترا تؤيدان اليهود فى تشويه التاريخ ، وتريدان خلق آثار عبرية وإزالة معالم عربية وجعل الحاضر الكاذب امتدادا لماض مختلق ، فلما وقف الرجل الكبير معترضا ورافضا انسحبت الدولتان الكارهتان للحق ، ومنعتا عونها « لليونسكو » ولم يأبه الرجل الشريف لهذا الانسحاب ، وتحمل متاعب السير وحده ، ولكن الاستعمار الغنى القوى لم يتركه ..

وكان نفر من المستشرقين الأجراء للدول الحاقدة على الإسلام قد ألفوا بحوثا رخيصة طعنا فى تاريخنا وحضارتنا ونبوتنا ووجودنا الروحى والمادى على سواء ! وشعر أولـو الغيرة بما تقدمه اليونسكو للناس من دسّ ، وما تزينه من غش فآتاحت الهيئة فرصا للرد العلمى النزيه ـ وذلك فى عهدها الماضى ـ فكان هذا الموقف المحايد سببا فى ضيق أمريكا وانجلترا ، وتركهما هيئة للإسلام فيها صوت مسموع فى بعض الأحيان ! .

إن إخراج أحمد مختار امبو من « اليونسكو » انتصار لتيارات مريبة ، وهزيمة للعَرب والمسلمين ، وليس أغرب من هذا الانتصار إلا فقدان الإحساس بضراوته ونتائجه ..!!

ماأفدح الخسائر التى تلحقنا دون أن نشعر! من ربع قرن أو أكثر كنت أخطب فى نقابة

المعلمين بالقاهرة ، وكان نقيب المعلمين السيد كمال الدين حسين ، واختلط صوتى بالأنين وأنا أنعى بضعة عشر ألف قتيل ذبحوا فى زنجبار ذبحا رهيبا ، كانوا جميعا من العرب ! وضاع صوت الناعى مع دفن رفات الضحايا ، وجفّ أرخص دم على ظهر الأرض ، وضمت زنجبار إلى تنجانيقا فى البرّ الأفريقى ، وتكونت جمهورية تنزانيا الاشتراكية ! وتعاون حكامها مع الفاتيكان على الإطاحة بالحاكم المسلم فى أوغندا ..

وتتابعت هزائم العرب والمسلمين فى شرق إفريقية ، ومنذ أيام كنت أسمع إذاعة لندن تقول : إن العرب فى تنزانيا يتناقص عددهم ، لا لإرهاب يواجهونه ، بل لأن مستقبلهم التجارى غامض فى بلد اشتراكى ! .

لقد نُسيتْ أو تنوسيت المصارع القديمة لألوف من العرب ! وأى غرابة فى هذا ؟ إن أولياء الدم نسوه كل النسيان فكيف يذكره غيرهم ؟ .

العلاج فى الإسلام .. هل نعى ؟

لاحظت أن هناك اتفاقا بين العالم الشيوعى والعالم الرأسمالى على كراهية الخمر ومحاولة فطام الناس عن شربها ! وفى شكاة من المسئولين الروس أن الخسائر فادحة من مدير يصدر أوامره وهو مخمور ، وأن الخسائر فادحة كذلك من عامل يعالج آلته وهو غيبوبة والحديث موصول عن أخطار الطرق التى تنشأ من تهوّر السائقين السكارى ، وآلاف الضحايا كل يوم ، بل كل ساعة من جنون أولئك السائقين ...

وقد رفع الروس أخيرا سعر زجاجة الخمر ستة أضعاف ، وقروا إغلاق الحانات من السابعة مساء ! ! وما يقع فى روسيا صورة مشابهة لما يقع فى أوربا وأمريكا من مآسٍ خلقية واجتماعية واقتصادية بسبب الإقبال على الخمور ، وتهالك الجماهير على شربها ...

والقوم يَزِنُون الأضرار المحتومة بما يعترى الإنتاج من نقص . وما يصيب الأجسام من علل ، وقلّما يذكرون ما يصيب الكرامات من هوان وما يصيب الأرواح والعقول من دنس ..

وكنت أناقش قادما من روسيا عن الاضطربات الجنسية هناك فقال لى : الشذوذ نادر ! ومن أراد الزواج فلن يتكلف أكثر من الذهاب إلى المسجل الحكومى ليذكر بمن تزوّج ؟ قلت : هل معنى ذلك أنه لازنى ؟ قال : لا ! فإن هذه الفاحشة تنتشر مع انتشار الخمر وغلبة السكر وتحرك الغرائز وغيبة العقول ! .

واستطرد : إن الجماهير تحترم من المسلمين صدوفهم عن الخمر ورفضهم للخنا ! ويوم يرون مسلما يسكر فإنهم يزدرونه ويسقط من عيونهم .

وعواصم العالم الغربى تجعل من الخمر مهادا لانطلاق شهوانى ردىء ، والخمر وراء مذابح الأعراض رضا أو اغتصابا ، وهى الجسر الذى تعبر عليه المخدرات لتأتى على ما بقى من حضارة الغرب ، ولتنشئ أجيالا محقورة تفقد العلم والإيمان ...

ونتساءل: لماذا لا يحرم الناس الخمر بالأسلوب الحاسم الشامل الذى وضعه الإسلام ؟ والجواب المحزن : لأنهم لا يريدون أن ينسب إلى الإسلام صواب ، ولا يحبون القول بأنه سبق إلى خير ! .

وقد زعم قسٌّ غيور أن النصرانية تحرم الخمر ، ودعا قومه إلى تركها ! وليته كان صادقا ، وكيف يصدقُ وفى الإنجيل لديهم أن عيسى شرب خمرا فى العشاء الربانى ! وكذلك شرب أنبياء العهد القديم الخمر حتى فقدوا الوعى واقترفوا المناكر ! .

إنه لا علاج إلا فى الإسلام فهل نعى ؟ .

ما يطلبه المستمعون

أسمع الإذاعات الأجنبية لأعرف أحوال سائر الخلق بعد أن أعرف أحوال قومى ، وقد وقفت أسفا دهشا وأنا أتابع ما يطلبه المستمعون من الموسيقى والغناء الغربى ! .

ناس فيهم الذكران وفيهم النسوان ، من أحياء وطنية ، وأماكن بدوية ، هذا يطلب سماع المغنية الفرنسية فلانة وهذا يريد أن يسمع المغنى الانجليزى فلان ، وتلك تهدى الألحان لحبيبها وذاك يهديها لحبيبته الغالية جدا . ! ..

وبلغ الضياع القاع عندما عرضت رواية «عايدة» باللغة الإيطالية قريبا من أهرام الجيزة ، وحضر الألوف وانصرفوا وهم بحمد الله لم يفهموا شيئا غير بغام يعلو ويهبط ! ! .

وتذكرت ما حكى عن المغنى الزنجى المحقور « مايكل جاكسون » الذى يكره العرب أشدّ الكراهية ، فقد قيل له : إن العرب يحبون أن يسمعوا أغانيك ! فقال : لو علمت ذلك ما غنيت ! ! قلت : هذا المغنى يخدم اليهود ، وكان جديرا أن يسقط من عين العرب ولكن عشاق الطرب لا دين لهم ولا غيرة ! ! .

لقد فكرت طويلا فى هذا المسخ الذى أصاب طوائف من أمتنا فأصابها ما أصاب اليهود قديما عندما جعلهم الله قردة وخنازير .. ؟ .

إن هذا المسخ بدأ بين المثقفين الذين احتقروا لغتهم ، وأهانوا تراثهم الأدبى ، وشعروا ألا كيان لهم إلا إذا تحدثوا بلسان أجنبى ، وتعاملوا بتقاليد مستوردة ..

وأخذت شخصية الأمة تتفتت ، حتى شعرت أنها كالإسفنجة التى تمتص كل ما حولها لأنها خاوية خالية تجتذب ما يعرض لها ..

إن الشعر العربىّ العامر بالجمال والحكمة اختفى من لغة التخاطب .. وكنا قديما نحارب

الغزو اللغوى فأمسينا اليوم ننشئ للأطفال مدارس اللغات التى تؤخر العربية أو تهملها لتبنى على أنقاضها اللغات الأخرى ..

وما نحارب معرفة اللغات ولكننا نأسى عندما نرى النطق بالعربية رديئا حافلا بالأغلاط الفاضحة بينما نرى الحديث بالانجليزية أو الفرنسية مضبوطا لا عوج فيه .. ليس للعربية كرامة ولا للحفاظ عليها حراس ولا يخزى من الجهل بها رئيس أو مرءوس .

والآن أسمع شخصا من بولاق فى القاهرة ، أو من الباسطة فى بيروت ، أو من القصبة فى الجزائر يريد أن يشنف آذانه أو آذان حبيبته بسماع أغنية من أغانى «البوب» أو موسيقى «الروك والرول» .

جدع الله آذانكم وأنوفكم وأصمّ أسماعكم !! .

إن هناك انحدارا تهوى به أمتنا فى مجال اللغة والأدب والفن ، وإذا لم نسارع إلى علاجه سقطنا فى هاوية لا قرار لها ...

هل نحن إرهابيون حقا ؟

فى أقطار كثيرة تهدر حقوق المسلمين وترخص دماؤهم ، فإذا أبدوا مقاومة واهنة ضد المغيرين عليهم ودفعوا بالراح أفتك أنواع السلاح ، ارتفعت صيحات معروفة : المسلمون معتدون ! المسلمون إرهابيون ! . المسلمون يعودون إلى همجيتهم الأولى ! وأعطيت الإشارة للدبابات أن تصُبَّ حمَمَها على الصبية الذين يقذفون المغيرين بالحجارة ! .

ويبدو أن حبل هذا الإفك لا ينقطع ، وقد وزعت أدوار هذه الأكذوبة الكبرى على أطراف شتى تجمع بين مبشرين وصحافيين وممثلين وتجار كتب وتجار سلاح وباعة «كاسيتات» وأشرطة «فيديو» وساسة خبثاء وأتباع حمقى ..

والإصرار على اتهام الإسلام بأنه دين إرهابى هو ـ كما يقول علماء النفس ـ نوع من الإسقاط الذى يدفع المرء إلى اتهام غيره بما فى نفسه هو من شر ، وبما كسبت يداه من إثم ..

وأكتفى بتسجيل عبارات رواها لوقا فى إنجيله عن المسيح ـ عليه السلام ـ وهى عبارات يدور عليها التاريخ الصليبى كلّه ، ومع أننا نحن المسلمين نستبعد صدورها عن عيسى بن مريم إلا أن القوم صدقوها ونفذوها وعاشوا وما يزالون فى جوها .

يقول إنجيل لوقا على لسان المسيح [١٢ : ٤٩ ـ ٥٣] «ولقد جئت لألقى على الأرض نارا ! فماذا أريد إلا أن تكون قد اضطرمت؟ ولى معمودية لأصطبغ بها ، وما أشدَّ ما أعانى حتى تتم ! أتظنون أنى جئت لألقى على الأرض سلاما ؟ أقول لكم : كلا ! . بل انقساما ... فإنه منذ الآن سيكون خمسة فى بيت واحد منقسمين ، ثلاثة ضد اثنين ، واثنان ضد ثلاثة ، فيعادى الأب ابنه ، وابن أباه ! وتعادى الأم ابنتها والابنة أمها ، والحماة زوجة ابنها ، وزوجة الابن حماتها » .

ولم ينفرد لوقا بهذا المعنى ، بل أيده متى [١٠ ـ ٣٥] ويوحنا [٧ : ٤٣ ، ٩ : –١٦ ، ١٠ : ١٩] .

وإذا كان الانقسام فى بيت واحد غاية دينية فكيف إذا تعلقت الرغبة السيئة بمستقبل قطر كبير ؟ .

لقد كان الشام قطرا واحدا فإذا هو الآن أربع دول ، سوريا ولبنان والأردن وفلسطين ، والخطة مطردة لجعل فلسطين دولتين وجعل لبنان دولتين ! إن الانقسام أو التقسيم مشيئة إلهية كما ترى الصليبية :.

ووسيلة ذلك القتل والختل واتهام الإسلام بأنه دين إرهاب ! واتهام المسلمين المَضِيمِينَ فى أرجاء الأرض بأنهم ضد السلام ، وأنهم مشعلو الحروب !! .

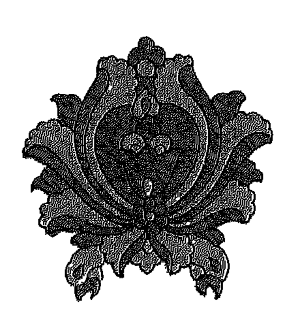
الفهرس

الجزء الثانى

رقم الإيداع : ٨٨/٧٨٦٤
الترقيم الدولى : ٨ـ ٢٨٥ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت.٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس.٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

الحق المر



هذه طائفة من الكلمات التى سطرتها تعليقا على مايقع بالعالم الإسلامى أو مايقع عليه !

إن الذى أغرى بتأليفها وتجديدها تشابُه الآلام والأزمات التى تعرض لأمتنا فى حاضرها وماضيها ! فالمناسبات باقية ! !

ما أكثر الأخطاء التى تستقر بين الناس لأنها لم تجد من يصححها فور وقوعها

إنها قد تدوم بعد ما تحولت إلى وضع قائم ! وللأوضاع القائمة حقوق مرعية فى كثير من الأحوال !

وما يغنى ذلك أبدا عن أن يكون للدعوة الإسلامية جهاز راصد يقظ ، يكشف كل شبهه ، ويُفلّ كل هجمة ، ويرسل الرد السريع على كل تساؤل مريب فلا يدع فرصة لتلبيس أو فرية !.

ثم إن العالم الإسلامى واسع الرقعة مديد الأطراف ، وقد تكاثرت عليه الرزايا والسنون العجاف ، ولاتزال البدع تغلب السنن ، والأوهام تغلب الحقائق ، وأنشطة الاستعمار الثقافى تعمل عملها لمحو شخصيته بعد ما اخترقت حدوده من أمدٍ ليس بقريب !.

فلتكن هذه الكلمات الوجيزة إلى جانب الرسائل المسهبة جهدا إلى جانب جهد فى إسداء النفع وإيقاظ الغافلين ..

محمد الغزالى

الغلاف للفنان حلمى التونى

© دار الشروق

القاهرة ٨ شارع سيبويه المصرى - ت ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت ص ب ٦٤ ٨ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠١)